قصص قصيرة

أروَاحٌ تَتْرَى



ناصر الحلواني

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

أَرْوَاحٌ تَتْرَى

أرواح تَتْرَى

قصص قصيرة

المؤلف: ناصر الحلواني

الطبعة الأولى 2019

رقم الإيداع: 21763 / 2019 م

الترقيم الدولي: 978/977-6768-52-9

الطبع والتوزيع: يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



لوحة الغلاف: الفنان وليد نايف

تصميم الغلاف: ناصر الحلواني

أَرْوَاحٌ تَتْرَى

قصص قصيرة

ناصر الحلواني

نافذة

يذكرون أن هذا الشارع الصغير، والحارات المتفرعة عنه، والحي المحيط بأكمله، كان جزءا من حديقة هائلة تحيط بقصر رائع، كان يسكنه ملك، وزوجاته، وأولاده الأمراء، وابنة وحيدة، أنجبتها أمها وهي في السادسة عشرة من عمرها، وماتت، تركتها وحيدة في قلب تلك المملكة، ويحكون أنها كادت تلحق بأمها، قبلما تقبل أثداء المرضعات.

مات الملك، وتفرقت الزوجات، وهاجر الأمراء إلى غربتهم، أما الصبية، التي بادَ مُلكُها، فلا يذكر أحد عنها شيئا.

بقي القصر، يمر به الناس الذين ظلوا لأزمان يتذكرون أهله وأيامه، يتحاكون فيما بينهم، ويحكون لعيالهم عنه. يغوص به الزمان في شيخوختهم، ويتماهى في ذاكرتهم الدنيا، فما عادوا يرونه في غدوهم ورواحهم، بينما يمر به الأطفال بذاكرتهم النشطة، وخيالات تحفزها حكايات سردها عليهم من غابوا، فظلوا يرونه قصرًا مسحورًا، يخشون المرور به في الليالي الحالكة، أو حين ترعد

السماء.

بينهم كان صبي، يحفظ حواديت أمه عن هذا الملك الذي كان، عن أسوار قصره التي تمتد لمسيرة يوم، حدائقه التي تُثمر أشجارها كل ما خلق الله من ثمار، وطِيبِ ريحها التي تُعطِّر الدروب المحيطة، وبيوت الناس من حوله، عن طيوره الملونة بألوان المواسم كلها، ونوافذ قصره المائة، التي تطل على جميع جهات الأرض.

نافذة بعينها، دومًا، يرنو تجاهها، تطل على جهة الشمس الغاربة، يرسم جانبا ستارتها قوسًا مدببًا من فراغ، في الأعلى، يسمح للنور بالنفاذ إلى الداخل، ويلتم جنباها، عند الوسط، برباط مضفور ناعم، بلون حبة رمَّان ناضجة.

كان يمكنه رؤية انعكاسات الشمس على فتائله القديمة، وعلى الخيوط الدقيقة من الذهب الخالص، التي تمر مثل شريان ضوء، يحيط بحنو بقماش الستارة العتيقة، ذات اللون الغائم، خلف زجاج النافذة الشاهق، القادر، حتى الآن، على أن يعكس ما يمر في فضائه الشفيف من سحب عابرة وطيور.

وعند الغروب، كانت الشمس المزهوة ببرتقالية آخر اليوم، تحيل

النافذة إلى لوحة يمتزج في ترابيعها الملكية لون غروب راحل، ورمادية أول ليل، وخلفية من فراغات أرابيسك، تصور أزهارًا وطيورًا، على دانتيللا الحجاب الوردي، المنسدل بين جانبي الستارة البيضاء.

وخلف النقوش الدقيقة، التي تصور طيورًا أسطورية، ذات أجنحة حريرية، كان يرى أطراف أصابع منمنمة، تمسك بطرف الستارة الوردية، الرهيفة كالزجاج، ولا يحركها هواء، وبطرف عينها، الأجمل من كل الأساطير التي تداريها، كانت تنظر.

تمنى لو أنها تنظر إليه، لو أنه قطعة من الزجاج التي يمر نظرها عبره، لو أنه خيطٌ حريريٌّ في حاشية ستارتها التي تلامسها.

هل يحكي لأصحابه؟ تردد كثيرا، خشية أن تنظر إلى أحد غيره، أو أن يقوموا أمامها بتلك الحركات البلهاء، فتختفي.

لم يكن يأبه لكلامهم السخيف من أن أحدًا لا يسكن هذا القصر، من أنه لا يرتاده في النهار سوى العاملين فيه، أما في الليل، فيسكنه تاريخ مضى، وصمت حاضر.

وكل ليلة، كان يطلب من أمه أن تحكي له حكاية الأميرة الصغيرة، وبعدما تنتهي، يكرر سؤاله اليومي:"ولم يرها أحد بعد ذلك؟"، ويأتي ردها اليومي: "نعم".

يقوم بعدها إلى سريره، وفي قلبه ابتسامة صغيرة، تضيء وجهه، وتسري كتيار خفي تحت جلده، ويطفئ النور، ويندس تحت غطائه، ولا يكون في عالمه الليلي سوى حلم صغيرخافت الجوانب، تتوسطه نافذة، وأنامل رقيقة ترفع حاشية ستارة من الدانتيللا، وأميرة صبية تنسم بنظرة آسرة، تسري عبر الزمن، والنافذة المغلقة، والسور، إلى عينيه.

ورد آخر

كنت أعدو، أسبق خطواتهم الرتيبة، بجوار سور مجرى العيون، عيون حجرية هائلة المآقي، أقواس متوالية، كبوابات بلا أبواب، ينفتح بعضها على عالم لا أعلم عنه شيئًا، وبعضها موصَد بأحجار كأجفان منسدلة، وخلفها بيوت فقيرة، وشوارع صغيرة، وكثير من الكلاب الهزيلة، وقطط لا تموء.

أركض إلى العين التالية، أراها هائلة الارتفاع، ألصق ظهري بأحد جانبيها، أحس صلابة الحجر تدفعني، تنغزني النتوءات الخشنة، أشب بقدمي، وأمد بصري إلى أقصى استطاعتي، كأني أستطيل لألمس مفتاح القوس، وأخطو ببطء ورأسي لأعلى، تسير معي أحجار القوس في خط مُنحنٍ هادئ، يرتفع حتى يصل إلى الفص الذي تستند إليه الأحجار المعلقة في قوسها، ومع خطواتي، يعود المنحنى الحجري إلى الانخفاض حتى تصطدم نقوشه بوجهي.

وقبلما تزعق فيَّ أمي، كعادتها، ينظر جدي تجاهها، ويقول لها:

"سيبيه يلعب ده لسه عيل"، فأسرع إلى العين التالية، ألص ظهري بجانب القوس، وأغمض عينيَّ، وأخطو من دون أن أمد يدي أمامي، كان ممتعًا أن أستطيع التوقف قبل أن أصطدم بالجدار المقابل، محاولا تقدير لحظة وصولي، وفي كل مرة، كنت أصطدم بالجانب الآخر، وكان لهذا متعته أيضًا.

كانت الأقواس تأخذ في التضاؤل والانخفاض، حتى لا أعود أتمكن من الدخول تحتها، ويظل الرصيف الطويل ممتدًا، نجتاز سربًا من النساء المتشحات بالسواد، يُخفي بعضهن وجوههن بأطراف طُرحهن، وينتحبن، ويمضين مثل غيمة أرضية تعبر نهارًا مشمسًا.

أعود إلى جدي وخطواته الهادئة، أمسك بيده، أشعر بكفه العجوز، بشرتها اللينة المجعدة، أصابعه النحيلة الملساء، أسأله: "إحنا ليه بنروح القرافة؟"، انقبضت كفه، لوهلة، على كفي، ثم ابتسم لي: "علشان نزور سِتَّك". نظرت جهة أمي خلفنا، تأكدت أنها بعيدة بحِملِها من الفطير، سألته: "بس مش هي ماتت!" هدأت خطواته، وأحسست برجفة خفية وغريبة تسري من كفه، عبر ذراعي، وتستقر في قلبي. التمعت عيناه وهو يقول: "أيوه"، وأخرج

منديله، وأخفى به وجهه لحظة. انتابتني رهبة مسَّت شغاف قلبي، وشعرت بانتفاضه المكتوم يتخلل روحي.

وما إن ظهر أول بائعي الورد، الجالسين بطول ما بقي من الرصيف، حتى صحت قائلا: "أنا اللي هاشيل الورد"، ولكن جدي تجاوزه، ومررنا بالبائعة التالية، كانت صبية تكبرني بقليل، نظرت إليها ثم إلى جدي، كانت مثل باقي البائعين؛ تفرش الورود على قفص مقلوب من الجريد، وتجلس على آخر، ترتدي جلبابًا قديمًا، فقدت زهوره ألوانها، وبدا وجهها باهتًا إلى جوار زهورها الصفراء والبرتقالية الزاهية، ويابسًا إلى جوار أوراق السعف الخضراء المرشوشة بالماء. لم يلتفت جدي إليَّ، وكأنما أحس بما ترغبه نفسي الصغيرة، سمعته بالكاد: "مش من هنا".

كان تيار الرهبة الساري بيننا مازال حيًّا، فلزمت الصمت، ومشيت معه، وفي عقلي صورة الصبية، ووجهها الصغير الصامت، ويدها الدقيقة اليابسة تربط حزمة ورد لبعض العابرين. حينها لم أكن أدرك معنى الإحساس القابض، الذي انسل كالنصل إلى روحي، عبر الكف النحيل الذي يمسك بيدي.

نظرت إلى السماء، لم يكن هناك عصافير أو حمام، التفت إلى جدي، كان لا يزال يُمسك بمنديله، وعيناه تزداد لمعتهما، وكان وجه أمي يبدو متجهِّمًا من أثر حملها لسبت الفطير الثقيل، ومشقة السير في الشمس.

وجدتني أمسح دمعة أحسست بسخونتها على وجنتي، بينما أفكر في ذلك الحبيب الذي ماتت زوجته، وتركته وحيدًا، هل سيموت هو أيضًا، ويتركني وحيدًا؟

دار السور إلى اليمين، ومعه الرصيف المترب، وتوقفنا حتى أدركتنا أمي، ثم عبر بنا الشارع، إلى الرصيف المقابل، الذي ينتصب على طول جانبه سور قصير، يحد فضاءً شاسعًا يسكنه الموتى.

صرنا إلى الجهة الأخرى، حيث الأفق المفتوح على سماء صافية، تحملها الكثير من المآذن، والقباب، وذلك السور الحجري القصير، أتكئ عليه، وأجوب ببصري في تلك البحيرة الترابية الهائلة، تشبه ميناء تزاحمت فيه قوارب مذعورة، ركام من المقابر المتلاصقة. هل يخاف الموتى، أيضا، الوِحدَة؟ تساءلت في نفسي.

كان ثمة جدران بألوان أرضية، تصعد هنا، وتهبط هناك، في

فوران أهاجه مخلوق غامض يكمن في قاع تلك البحيرة الرمداء، لم يره أحد أبدًا، لكن أحدًا لا ينفي وجوده، ولم تكن الألوان المبتهجة للطيارات الورقية، التي تصعد خيوطها من قلب هذا الغبار المتلاطم، لتخفف من تأثيره، وكذلك تلك الورود الصفراء والبرتقالية، بلون الغروب، على هذا الجانب، ما كانت لتُحل السكينة في قلبه، بينما كان يبتلعها بانتظام قدري.

ومن مكاني، خلف السور الحجري، على الطريق، كنت أرى بقع الأصفر والبرتقالي والأخضر تتحرك أمام خلفيات سوداء متناثرة، لتختفي الألوان كلها، في باطن تلك اللجة الأخروية، أو تسكن إلى التراب حول الشواهد الجيرية الفقيرة، بعد أن تضعها الحزانى، اللائي ابتعنها بقروش قليلة، فوق موتاهم.

وعند أول الطريق الترابي، الممهد بخطو زمان طويل من جنائز متواترة، ومواسم الحزن، كانت وحدها، عجوز تتكوم في سواد ثيابها وسنين عمرها، وأمامها قفص الجريد نفسه، وفوقه الورود نفسها، ونحوها توجه جدي، تاركًا يدي، وفي نبرة خافتة قال: "السلام عليكم"، التفتت العجوز إليه مبتهجة، وهي ترد: "أهلا يا

حاج، تعيش وتفتكر"، لم يرد عليها، ولم تفارق عيناه وجهها، والذي يتجه نحو أفق ما، ولا يحيد عنه، وبسرعة مدت يديها إلى ورودها، باقة من الصفراء، وأخرى برتقالية، حزمتهما معا، ثم بعض السعف الأخضر المرشوش بالماء، وبواحدة من السعف، وببراعة، جعلتهم ربطة واحدة، جميلة.

أسرعت لآخذها منها، استوقفتني كف جدي، سكنت في مكاني، وبخشوع تناول باقة الورد منها، أبقاها فوق كفيه قليلا كطفل وليد، ثم استدار نحوي، ووضعها فوق ذراعي، بلل ماؤها صدري، ثم رفع كف العجوز بيد، وبالأخرى ناولها النقود.

أحسست برودة منعشة تنبسط في أنحاء جسدي، كانت أمي قد سبقتنا على الطريق الترابي، تبعناها، ومعنا كان صوت العجوز بدعواتها المنسابة لجدي، كنت أعرف هذا الصوت.

من بعيد التفت نحوها، جلبابها الأسود، ومنديل رأسها الأسود أيضا، المعقوص على جبينها، وملامح وجهها التي التصقت ببصري، وتجاعيدها، وخصلة شعرها الخفيفة المصبوغة بالحنة، وتلك الكرمشات المتناسقة على كفيها، وصوتها الواهن العميق،

ونظرتها الثابتة إلى الأفق، ثم نظرت إلى باقة الورد في يدي، كانت أحلى من كل الورود التي يحملها السائرون إلى موتاهم، وكان التيار الذي يسري عبر كفي أكثر خفة. توقفت فجأة، ودون أن أنظر إلى عينيه، قلت له: "الست دي شبه ستِّي بالظبط".

اشتد دفق التيار الخفي إلى روحي، والوجد الكامن في خطوات جدي، على الطريق الترابي، الملتوي مثل متاهة. ويمضي كثيرون، خلفنا وجوارنا، يحملون حزنهم الطازج، أو القديم، وربما بعض الذكريات الطريفة، وباقات ورد، تمتزج في أنوفهم رائحة الغبار الحادة، ورائحة الورود، المنداة بالماء، تحت شمس ساخنة، وفي قلب ريح خفيفة تحرك أطراف مناديل النساء، وجلابيب الرجال، وأوراق الورد الصابح.

على جانبي الدرب الغباري تتراص الأحواش، وأشجار ليمون جافة، والتُرَب المنتصبة في الخلاء، ترتفع فوقها شهود مطلية بالجير، وموشوم في بداءتها بخطوط متقنة آيات وعبارات وأسماء، لم تكن جدتي في إحداها.

على مدى عمره، ظل جدي يدخر ما يمكنه لبناء حوش له

جدران من الحجر، وباب من الحديد المدهون بالأخضر، الذي استحال إلى مزاج من لون التراب والصدأ مع الأيام، ولكن لم يبق له ما يمكنه من بناء سقف، "بينها وبين ربنا عمار، ليه نحجزها عنه" كان يقول. "بس الورد بيموت بسرعة في الشمس" قلت له ذات مرة، "كل خلق الله يموت" رد وهو يربت على رأسي برقة.

وفكرت أننا نحمل وردات ميتة لنضعها على أرض تحوي موتى، ولكني حرصت على أن أحيط الباقة بذراعي، أضمها إلى صدري، حريصا على ألا تقع، فيفسد التراب شكلها الجميل.

وكانت أوراق السعف الطويلة، حادة الأطراف، تداعب أنفي، وتبلل وجهي، أشعرُ بها تدغدغني، أضحك، فيلتفت جدي نحوي مندهشًا، وعبر كفي الأخرى، التي تحيط بالسيقان الخضراء اللدنة، أحس بدبيب حياة من نوع آخر يسري إلى روحي.

عصافير الجنة

بأصابع وردية دقيقة، نحمل كراساتنا القديمة إلى شرفتنا، نفك أوراقها المسوَدّة بما خططناه فيها، في العام المنتهي، نشرع في تمزيقها إلى شرائح صغيرة، غير عابئين بانتظام أشكالها، فتنمو أمامنا كومة من العصافير الشغوفة، مثلنا، بالخلاص من تعلقنا بالأرض، والطيران.

نأخذها بين أيدينا الصبية، ونطلقها، أفراخا وليدة، إلى فضائها الأول، أسراب من القطع الورقية، تتراقص كأرواحنا في الهواء، كلٌّ منها إلى سبيل، وجميعها تصعد، تملأ السماء فيما بين الشرفة والعالم من حولها، نرقبها بمتعة صائحين: "عصافير الجنة".

لا أذكر أن أحدا علمنا أن نفعل ذلك، أو أن أحدا دلَّنا على اسم اللعبة، ذلك الاسم السحري الغامض، لم نكن نفكر في الأمر، كأنها خبرة فطرية وُلِدنا بها، أو ربما لقننا إياها ذلك المَلَكُ الذي يهبط بأرواحنا، ونحن بعد في أرحام أمهاتنا، ببساطة، صارت اللعبة في حياتنا كحياتنا نفسها.

لم نكن نتساءل لماذا هي عصافير، ولماذا الجَنَّة، فما كان ذلك يناسب طفولتنا، ولكننا كنَّا نراها عصافير، تلك القطع الورقية المسطَّرة بأعمالنا، وواجباتنا المنزلية، ورسومنا الساذجة، عندما كانت تحوِّمُ في فضائها بحرية، وتسبح في بحرها غير المرئي، تلتف حول نفسها بسرعة، تتخبط أو تتباعد. كنَّا نراها من الجنَّة، أو ربما هي راحلة إليها، أو لعلنا كنَّا نشعر بتلك المتعة النقية الصافية، فنحسبها، بمعارف طفولتنا الأولية، متعة الوجود في الجنة.

كانت الكراسات لا تنفد، وكذا أعمالنا، لكني أذكر، مع كل عام، بحلول الصيف، حين يحلو لنا أن نتخلص منها، أن عصافيرنا كانت تهوي بنحو أسرع من العام الفائت، لم يكن السبب واضحا برغم ما كان من نمو مداركنا، ورؤوسنا التي تزداد ابتعادا عن الأرض، واقترابا من حرارة لمبات حجراتنا الصغيرة، ولكنَّا ما نزال في عمر يلهو يالأوراق الممزقة.

لعلنا كنَّا نفهم لماذا تهبط أغلفة الكراسات أسرع من غيرها، فذلك اللون القاتم، وخشونتها البادية، كافيان لأن يضيفا إليها ثقلا ليس لغيرها، أما الأوراق ...!

لم تعد العصافير بالخفة ذاتها، كل صيف أثقل من سابقه.

في حومانها، كان للأوراق وميض، نورها المطلوق فرحا بحريتها، بخلاصها من أسر الأغلفة السخيفة، وجروح الدبابيس المعدنية، المغروزة في قلبها، والتي تؤلمها ولا شك، حتى أننا كنَّا ننزعها من قلوبها ببطء وحرص شديدين.

ولكنَّا كنَّا نوقن أن تمزيقها يُسعدها، ألم يكن يخلصها من هيئتها المفروضة عليها، ومن تكدسها المزعج، ليعيدها فرادى، إلى حالها الطبيعي، تشكيلات رائعة وغير منتظمة، أشبه بأوراق شجرة تمر بخريف مبهج، فينضو الموت عنها، وبتمزيقنا لها، كانت أوراقنا تحلِّق إلى مسافات أعلى، لأزمان أطول، تهيم فيها قبل أن تبدأ عودتها النهائية إلى الأرض.

حينها، أشبه بأفراخ طيور كنَّا، يكسو الزغب الخفيف أرواحنا، ومعارفنا التي ولدنا بها، وخيال مثل لعبة فطرية، نصنع به بيوتا بسيطة، ونزرع زهورا تحيطنا بأريجها، ونوجد فراشات شفافة ملونة، وربما أرانب وردية، وأشجاراً تثمر ألعابا، وملائكة ترافقنا، تسكن أكتافنا الصغيرة، تنير لنا أمسياتنا المظلمة، وترعانا، نلمسها كلما رغبنا في تحقق أمنية، فنجوب البلاد البعيدة، نتأرجح على أطراف أهلة، نمتطي طيورا أسطورية، وأحصنة مجنحة، وبُسُطاً سحرية،

نستحيل أمراء، تمنحنا التعاويذ المطمورة الجمال والقوة، تحبنا الأميرات، نحل لهن ألغازهن، ومهورنا إليهن فرس من ذهب، أو ريشة عنقاء، أو قنينة من ماء المحاياة.

كانت أحلامنا هي جنتنا الأولى، يرافقنا فيها ملائكتنا، وتهب عصافيرنا الخفيفة لتصعد إلى أقصى السماء.

كنَّا ندرك، وهي تملأ الفضاء بألق تخبطها ودومانها، أنها عائدة إلى الأرض لا محالة، لم نكن نهتم بذلك حين نطلقها من بين أكفنا، فقط نستمتع بوجودها هناك، نراها في جنتها المؤقتة، مثل زهرات ليلك شقية، تلهو على سطح بحيرة نائمة، أما هي، فكانت تَرِفُّ وفي نسيجها يكمن يقينها بنهايتها المؤلمة، كانت تُدَوِّمُ حول نفسها بسرعة، كأنما تقاوم تيارا حاسما يجرفها، تحاول الإفلات منه، تدفع نفسها لأعلى، أو تتعلق بموجة هواء حارة صاعدة، لا تلبث تلك أن تزيحها إلى أخرى باردة، تنحدر بها إلى تراب الطريق.

ربما لو استطاعت أن تنفض المكتوب عليها، تلك الخطوط الساذجة، غبار معارفنا الأولى، ولعلها فعلت، لكنها ما كانت لتقدر أن تتخفف من قشرة أعمالنا، التي امتزجت بنسائلها الواهنة، لا تملك أن تقصيها عنها، كالخبرة المحفورة في ذاكرتها، لا مناص من

ثقلها.

الآن، إلى شرفتي أخرج، محملا بالعمر، وخيالات طفولة، وصور أوراق تتهادى بين النسائم، شرفات أخرى تطير إليها عصافيري، أطفال آخرون يلقفونها كالحلوى اللذيذة، وشوارع تهبط فيها على العابرين، تلمس أكتافهم المهمومة، فتلتفت ملائكتها، للحظات.

وإلى شرفتي، الآن، آخذ بعض أوراقي القديمة، أجلس على الأرض الباردة، أستعيد ذكرى صبي، وأمزقها إلى قطع أصغر مما اعتدت حين طفولتي، أُخادع بمنحها خفة أكبر، يصير أمامي الكوم الهائل، أحفنه بيدَيّ الكبيرتين، أقوم إلى فضائي، أقذف بها عاليا، فلا تصعد إلا بقدر ما كان من دفعي لها، ثم تَهوي الأوراق سريعا، تنجذب بأثقالها، أراوح بكفٍ فزعة بين كتفي، أبحث عن ملاكٍ رفيق، فيما تظل في انحدارها الكثيف، فأغمض عينيَّ، وفي هدوء كهل، أسمع رنين اصطدامها بالأرض.

قشرة الروح

لم أكن حتى أتساءل كيف تتكاثر هذه الفراشات، كيف تحتفظ بحياتها، فهناك نوع من المعرفة، بسيط، يكاد يشبه الإيمان، أو اليقين الحسي في أن هناك الكثير من الفراشات الصغيرة من حولي، هكذا.

لا أزيد عن أني أراها، وأدع لها كفِّي، أحيانا، لتقف عليها قليلا، لتتمتع ببعض السخونة البشرية، بعيدا عن الجدران الرطبة، الباردة، ذات اللون الواحد.

لم يتجاوز الأمر ما يشبه الاعتقاد بأن الله موجود، وكذا الأرواح الهائمة بين الدنيا والآخرة، وتلك الفراشات الذهبية الضئيلة، التي لا تأكل أو تشرب أو تفعل شيئا سوى الرفرفة قليلا، والسكون في معظم الأحيان.

كنت أخشى عليها من رذاذ الموت الذي أطارد به الحشرات الأخرى، فكنت أتحمل الطنين السخيف لذباب النهار، وبعوض الليل، من أجلها، تلك الفراشات الحبيبة، تلك الأرواح الحارسة،

الآتيةمن عالم الموتى لترعانا نحن الأحياء. هكذا كانت تقول لي جدتي وأنا بعد صغير، ربما تجيء لتدلنا على الطريق إلى نهايتنا المحتومة، أن نتخلى عن أبداننا البشرية الثقيلة، وندع لأرواحنا أن تتلبس تلك الأجسام الرهيفة، أن نستحيل فراشات أخرى، تسكن جدران أحياء آخرين، لتخفف عنهم متاعب الحياة، حين يشعرون بالأرواح تحوم حولهم. إنها رعاية الله، فكيف لا تطيب لها نفوسهم، وكيف لا يأنسون لها، ويدعونها لحريتها.

إنها بالتأكيد تعلم، لا بدّ أن الله قد علمها كيف تمارس حياتها الروحية تلك، حتما هي تفعل شيئا أكثر من مجرد الرفرفة والالتصاق بالجدران، ربما توحي إلينا بما لا نشعر به سوى بنفوسنا في لحظات خلاصها من اليومي والمباشر، ربما هي تصلي لأجلنا.

رغبت أحيانا لو استطعت أن أملّس على جسد إحداها حين تقبع في كفي، لكنها لا تهدأ، كأنها تحس الدم المتدفق داخلي، تنبهها حرارته التي لا تحسها على الجدران الصمَّاء.

كنت أخشى أن يدهسها طرف إصبعي الدنيوي، أو يمسها بطريقة لا تناسب وجودها الروحي، ورقتها النورانية، حتما هي نور

بالداخل، أما ذلكما الجناحان، وذلك اللون الذهبي المكتوم، كلون حبة قمح طازجة، فليس سوى القشرة الخفيفة التي تسمح لنا برؤية ذلك الكائن المتعالي في صمته وخفَّته، والتي تتيح لنا بعض التأمل في قيمة هذه الضآلة المحلقة في الفراغات المحيطة بنا، ودلالاتها المضيئة التي لا تموت. لم أرَ إحداها ميتة، أبدا.

هل تموت الأرواح! أتتحمل كل هذه المشقة بعدما عاينت موتا سابقا، وتلبُّسها ذلك الجسم الأحادي ذا الجناحين، لأجل أن تموت، ثانية!

أفكر أحيانا لو أنها جدتي، التي أحببتها كثيرا، كانت الملهمة لي في صباي، ولعلها جدي، الذي قصَّ علي الكثير من حكايات ماضيه البعيد. مؤكد هما جداي، فهما من الأرواح التي تستحق أن تستحيل فراشات، لعلهما حين لا يكونان هنا، بجواري، يكونان هناك؛ في جنة عرضها السماوات والأرض، يا لها من مساحة تنعم فيها فراشات صغيرة، لا بدّ وأنهما يصيران طائري بجع، أو فرسين مجنحين؛ ليتمكنا من التجوال عبر هذه المسافات.

تُرى هل سيصير لي مثل أجنحتهما، لا أظنني ممن سيصيرون بُراقًا، ولا أظن أني ساكون فراشة أبدا؛ فهذا زمن لن نخلص فيه من الخطيئة حتى إذا اجتزناه نومًا، إذ كيف سننجو من أحلامنا. ربما أستحيل ذبابة مزعجة أو حرباء تمرح بمخاوفها المتلونة، في إحدى الغابات، أي شيء سوى أن أكون فراشة، أو أي جسم رهيف يتضمن روحا، أو نفْسًا من نور.

كنت أفكر في تلك الفراشات التي تملأ حجرتي، لقد عرفت مصيرها وأدركته، لا يزعجها شيء، ربما كانت هي الشاهد عليَّ بما يحول دون أن أصبح مثلها، وقد تكون هنا في لحظة موتي، لترى انتقالي إلى جحيمي الأخروية، في هدوء الناسك، وتدعو لي بالغفران بعد طول عذاب.

حاولت أن أخاطب أيًا منها، أحكي لها عمَّا أظن أنها لم تره، تلك الخطايا التي أرتكبها هناك، في الخارج، بعيدا عنها، اقتربت من إحداها،كانت أكبر قليلا من الفراشات الأخرى، دنوت بعيني إليها، بل إليهما! كانتا فراشتين، اثنتين، تتسافدان في هدوء، بلا حركة.

تساءلت إن كانت الأرواح تتضاجع! أو أنها في حاجة إلى التناسل، أو تُعنَى بلذة الجسد! لم أجد في نفسي ردا، فقط إحساس مُرٌّ بالشكِّ، تفكير مضطرب حول طبيعة تلك الأرواح الذهبية، وتساؤل حول حقيقة الفراشات القمحية التي تمارس متعتها الحسية، تملأ الفراغات من حولي، تزاحم جسدي بدنيوية خافية.

صرت أرقبها، أثيرها، أدفعها نحو النوافذ المفتوحة على الدنيا، أو أصرعها في هدوء.

البائع

في قلب الميدان، حيث يمر البشر من كل الأنحاء إلى كل الأنحاء.

وقف البائع، عند الحافة بين الأرض الطينية، التي كان يُفترض أن يغطيها النجيل الأخضر، وبين الرصيف، الذي كان يُفترض أن يكون مرصوفا، إلى جواره مقعد قابل للطي، وبيده قطعة من الكرتون، مكتوب عليه "الدقيقة 10 جنيهات".

وجه الرجل يمتلئ بأزمان عديدة، يظن من ينظر إليه أنه تجاوز مرحلة حساب العمر، وربما يدهشه أنه ما يزال حيا، وتزداد دهشته برؤيته واقفا، إلى جوار مقعد خال.

يجتازه العابرون، بعضهم لا يكاد يراه، وبعضهم ينظر إلى اللافتة والمقعد، ولا يرى شيئا آخر، فيمضي متسائلا: ماذا يبيع هذا الرجل؟!!

وقليل منهم من يقف للحظات، محاولا معرفة كُنْه بضاعته، تلك التي تُقدَّر بالدقيقة، فلا يرون شيئا، ولا يسألون، ويمضون إلى مشاغلهم.

ويمر به رجل، يحوز قدرا من الفضول، بأكثر من إلحاح مشاغله، يقرر أن يعرف بضاعة هذا البائع.

اتجه إليه، محاولا إزاحة ما يعلق بأذنيه من ضجيج، وما يعلق ببصره من تلاوين لا نهائية، يغلب عليها لون الغبار، وفي سكون، يرنو إلى البائع الصامت، يسأله:

ـ ماذا تبيع؟

يرد البائع، بصوت مخملي رصين،وهدوء يغلب عليه ثقل العمر:

ـ دقيقة بعشرة جنيهات.

عجب الرجل أن استطاع سماعه بوضوح، وسط ذلك الكون من الأصوات المحيطة، أجاب:

ـ نعم، قرأت اللافتة، ولكني أرغب في معرفة دقيقة من ماذا؟

رنا البائع بعينيه عميقتي النظرة إلى عيني الرجل، وقال وكأنه يلقي في قلبه:

ـ مجرد دقيقة، والدقيقة زمن، هل الدقيقة إلا زمن، أو جزء من العمر؟!

اختلطت في نفس الرجل الحيرة والتوقير للكلمات وصاحبها، وفكَّر؛ هل هو مجنون، أم حكيم ممن كان يقرأ عنهم في الحواديت

القديمة، ولكنه لاحظ أن نظراته لا تحمل معنى الجنون، وكلامه يدل على الفهم، وقرر أن يخوض التجربة إلى آخرها، فقال:

ـ حسنا، أريد دقيقة!!

فمد البائع كفا متغضنة، مثل جذع شجرة عتيقة، وإن ما زالت تشي بنضارة حياة تسري داخلها، وقال:

ـ عشرة جنيهات.

فأخرج الرجل الجنيهات العشرة، ووضعها في كف البائع، الذي صار صوته أشد عمقا ورحابة، سائلا الرجل:

ـ هل هناك من شيء تود أن تفعله، ولا تجد له وقتا؟

تعجب الرجل من السؤال، فقد كان يتوقع أن يناوله البائع شيئا لا سؤالا، ولكنه أجاب، مدفوعا بالرغبة في مواصلة تلك المغامرة، بلهجة تغلفها دهشة غير مخفية:

ـ الكثير من الأشياء، لا أجد لها وقتا!!

ـ مثل ماذا، تكلم بصدق؟

شعر الرجل أن المغامرة أخذت شكلا جديدا، فثم شعور بالحميمية يشعر به كدفء ينتشر بين جنبيه تجاه هذا البائع الغريب، فأجابه:

ـ كأن أجد وقتا للقراءة في المصحف، على سبيل المثال.

أشار البائع إلى المقعد، وكأنه يوحي إلى الرجل بالجلوس، جلس الرجل مأخوذا بإشارة البائع، فيما مد البائع يده إلى مخلاة معلقة خلف ظهره، تنبعج أنحاؤها بأطراف أشياء كثيرة، لا تبين عن كنهها، وأخرج مصحفا، وناوله للرجل، وقال:

ـ اقرأ.

ازدادت دهشة الرجل، ولكن عيني البائع، بصفائهما اللامع برغم العمر، وبعمقهما الذي جعله يشعر وكأنه لا يراهما، بل يخوض فيما وراءهما، يجول داخلهما في مدن غائرة في الزمن، هائلة البراح، جعلتاه يمد كفه بهدوء، ويتناول المصحف في صمت، وأخذ في القراءة كالمأخوذبنظرة البائع، وكالمذهول من فعله.

وما إن مرت دقيقة، حتى غشيه صوت البائع في رفق:

ـ حَسبُك.

ومد كفه في سكون، لم يشعر معه الرجل بضوضاء الميدان الفسيح من حولهما، ولم ير نظرات التعجب في عيون المارين بهما، فقط صوت رزين النغم يقول له:

ـ انتهت الدقيقة.

اشتدت رغبة الرجل في سبر غور هذا البائع الغريب الأطوار، فقال:

ـ لكنك لم تعطني شيئا مقابل ما أعطيتك من مال!!

فجاءه الصوت، بنفس العمق، والسماحة:

ـ أنا لم أغشَّك، لقد أعطيتك دقيقة، وجعلتك تفعل فيها ما ترغب.

ـ لكن، كان يمكنني أن أفعل ذلك من دون مقابل!!

فأجابه البائع، وقد صارت لهجته أكثر حنوا وقربا:

ـ هذا صحيح، لكنك لم تفعل، وآثرت أن تدفع ثمنا لما يمكنك أن تحصل عليه دون مقابل، إن عمرك كله ملك لك، إنه مقدار الزمن الذي وهبك الله إياه، ولكنك تهدره، حتى لا تعود تملكه، فتضطر أن تشتريه.

قام الرجل عن المقعد القابل للطي، ونظر إلى البائع نظرة المتفكر فيما سمع، بينما كان البائع يطوي المقعد ويحمله، ويمضي إلى سبيله، وهو يتمتم:

ـ الحمد لله، رُزقنا زاد اليوم.

ومضى، كسحابة فريدة في سماء صيف دافئ، متوغلا في قلب

الميدان الصاخب، يتبعه الرجل ببصره، إلى أن ذاب في الزحام المحيط، بمخلاته، ومقعده المطوي، وحكمته.

وغائبا في نفسه، سابحا في بحر من أفكار لها رائحة غرفة أُغلقت لدهور، سار الرجل في طريق يراه لا بعينيه، وهو يتمتم:

ـ الحمد لله، بثمن قليل، استعدت عمرا.

وانخرط في قلب الأصوات المتلاطمة، وهدير الألوان المكسورة بالغبار، وفي نفسه، ينساب نهر رقيق من السكينة.

إياب

مدَّ يده إلى المصحف، أمسك به، ثم عاد وتركه، فلمح على غلافه آثار أصابعه، ترتسم في الغبار الخفيف الذي يغطيه، شعر بغُصة عميقة في صدره، أسرع وأمسك به، مسح الغبار بطرف قميصه، بدت لمعة غلافه، وبرزت الكلمات عليه حية، فتحه، ورجفة خفية تسري في أنحاء جسمه، ألقى بعينيه ينهل من الحروف، والكلمات، والآيات، والصفحات، وهو يجهش بالبكاء، ويقرأ، تنهمر دموعه ساخنة وثقيلة، تغبِّش رؤيته للآيات، لا يتوقف، ومع الصفحات يشعر بثقل جسده يتضاءل، ينسحب إلى داخله، حتى يصير نقطة نائية في جوفه، وروحاً مطمورة تنبسط من قلبه، تنتشر إلى خارجه، تغلف وجوده، فتنوبه خفة نفس مغتربة، تؤوب إلى موطنها.

.

ضوء آخِر

تشرَّبت القماشة البيضاء آخر قطرات الماء على الجسد المسجى فوق الطاولة الخشبية،فيما تتسرب قطرات أخيرة من بين شقوق الألواح الخشبية ببطء، تتعلق بسطحها السفلي، وتقف هناك متوارية عن الأنظار، تحمل لمعتها المكتومة حزناً لا يبين، وخوفاً دفيناً من مشقة الرحلة البعيدة، بين مكان تعلقها والأرض السحيقة في الأسفل، ويحمل رحمها رائحة حنوط تعلق بالبدن الذاهب إلى مصيره.

يلتف الرداء المنسوج من خيوط الكتان الأبيض حول الجثمان الخامد، مثل كائن يتشرنق، ليكون إلى مرحلة التأهب لما بعد.

لم يبق ظاهرا إلا الوجه الشمعي الملامح، منسدل الجنبات، مرتخي الجفون، وشفتان مطبقتان على تيبس لم تعودا تقدران على الفكاك منه، وفم مسكوك على كلمات أخيرة تخشبت حروفها في جوفه، وأخرى ما قُدِّر له أن ينبس بها.

استكان الوجه، مستسلما للجاذبية، فبانت أغواره، وفشا فيه

جفاف الخلوص من نداوة الروح، وجه رحل منذ زمن، ولم تبق إلا ملامحه التي لم تقدر على الذهاب، على الأقل، إلى الآن.

لم يزل المصباح المنفرد، يتدلى بحذر من قلب السقف المفرود فوق الطاولة، يهيل ضوءه على جنبات المكان الملموس بالموت، تسيل أشعته على الجدران، وعلى همهمات الأسى المحيطة، وعلى البلل العنبري الرائحة، ويحاذر أن يمس الوجه الناضب من الحياة، وأنى له، فيسارع إلى الارتداد عنه، ولكن لا يملك إلا أن يكون إليه، يمتصه الجسد المسكون بالموت متعلقا بما يربطه بالحياة، يحاول الضوء الخلوص، قبل أن يغشي نسيج الكتان الأبيض الوجه المكشوف، تعاينه آخر لحظات الدنيا، وآخر نظرات الحزن من حوله.

يشدون دفتي الرداء، فينحبس ما بقي من الضوء المضطرب، بين البشرة اليابسة وجفاف الكتان المطبق،فيستحيل ظلاما مائجا، لا يراه من يربطون العقدة الأخيرة،فيحولون بين المسجَّى وحيدا في شرنقته،وبين أشعة ضوءتلوذ بمآقيهم،،وبحبات الدمع الناشئة على جنبات العيون المشغولة بالطريق إلى حيث يذهبون به.

الساهرة

الكل يهواها، والكل يرغب حتى بالوجود في مجال حلولها، تَرِدُ أحلامهم، وتجوس في خيالاتهم، وتنتصب في أبصارهم، وتنبسط كالزمن في أيامهم. تجول نهارها في سُبل الولهَى، تصرفهم عن أعمالهم، وحياتهم، وأنفسهم، وتَقَرُّ في الليل في عليائها، ساهرة لا تنام، تنعم في فرادتها بما يقرّبُونه إليها من قرابين ثمار، تطعمها، وتنثر عليهم قشورها واللب، يتخاطفون ما تُلقي، يسكبون عشقهم في مواضع لمسها، يتشهون نظرة منها، ولا تلقي لهم بالا.

وذات زمن، رأته يجتاز حقول السنابل، ويقعد على حافة النهر، ينسم هواء لا يحمل رائحتها، ويجمع أزهارا برية، يشرب رحيقها.

تمر به، فلا يأبه لها، تتسلل إلى ليله، فلا تقدر على الولوج إلى أحلامه، وتجد مُحرَّما عليها خيالاته، تَقرِّب وجودها إليه، وبين يديه تحرق بخور خضوعها، وتسميه: سيدا ، وتدعوه إلى قلعتها، فيذهب، وأمسى الكل يتساءل عن ما كان منها، وما سيكون.

وفي النهار يرونه، في عليائه وحده، وفي الليل ساهرا، وغدت تهواه القاطنات والعابرات، يَرِدُ أحلامهن، ويفضي إلى مراح خيالاتهن، فيقربن إليه ثمارهن، وينتظرن ما يلقي إليهن، ليلثمن مواضع لمسه، غير آبه بهن.

وذات زمن، رآها، تتهادى بين الحقول الذهبية، لا تعبأ به، يجهد أن يكون في منامها حلما، فلا يجد لها ليلا، وتمنعه عن خيالاتها، فيكون بين يديها، يقرِّبُ إليها وجوده، ويشعل لها قناديل خضوعه، فتكون له، سيدة، وترافقه إلى قلعته.

وفي النهار، يرونها، وحدها ...

الغاوية

في غيَابَةِ بَحرِهَا تَسكُنُ، شَفيفَةٌ كالضَوءِ، أو على صَفحَةِ المَاءِ تنفَردُ، مثل هُلامٍ زجَاجِيِّ اللونِ، تَفردُ شَعرهَا الكَثيفَ كعُرفِ فَرسٍ بَريَّةٍ عَلى الزَبَدِ، فيتماوجُ مخمُورًا مِن أثرِ دَغدَغاتِ الرَّغوَةِ الشَّهيَّةِ.

كل من نَدهَتهُ رآها، رُبما، ولكن أحدًا منهُم لم يَرجِعْ، ليَحكِيَ عَنهَا، عَنْ جَمالِها البَاهرِ، وسِحرِ صَوتِها الأخَّاذ، الذي يَسلُبُ عُقولَ الرِّجالِ، تَندَهُ على وَاحِدِهِم، فَيتبَعُها في سُكونٍ، حتى وَهدَةِ البَحرِ، يَخُوضُ فيه كالنَّائمِ، تَشُدُّه شَهوةٌ غَامرةٌ إلى حَتفِهِ، ليَختفِيَ في دُنيَاهَا، ثمَّ لا يَطفُو مِنهُ إلا ذِكرَى في حِكايَاتِ أصحَابٍ لَمَّا تَندَهُهُم بَعد.

وفي مَواسِمٍ لا يَعلَمُ مَواقِيتَها سِواهَا، تَخرُجُ حَيثُ يَتطَاعنُ سَيفُ البَحرِ ونَصْلُ الأرْضِ، تُدندِنُ ببعضِ صوتٍ وبعضِ صمتٍ، وتَبسُطُ تَرنيمَتَها في فَضاءِ المكَانِ، لتَقرَّ في مَسامِعِ المقصُودِ؛ الفَتى العَابرِ وحيدًا، يَحكي لنفسِهِ بعضَ قَصائِدِ عِشقٍ مُوجعٍ، أو يتغنى بموالِ حُزنٍ حَملهُ إلى وَحدَتِهِ، فَيحُومُ حَولَ حِماهَا، يسمَعُ نِداهَا

لاسمِهِ، بنغمٍ يُراودُ سَمعَهُ، يَنهَبُ ذاكِرَتهُ، فلا يَعودُ يَعلمُ مِن وجُودِهِ إلا الوصولَ حَيثُ تكُونُ نَادِهَتُهُ.

تتوَالى آثارُ خُطواتِهِ الغَائِرةِ في ليونةِ الشَّطِّ، نَحو اليمِّ المبسُوطِ كَسَماءٍ مُلبَّدةٍ بالمجهُولِ، ويَمضِي مِثلَ سَحابَةٍ، وفي عِينيهِ جَميعِهما تتجَسَّدُ، تَندَهُهُ باسمِهِ، فكأنما تَنسَّمَ دُخَانَ خَمرٍ، يدنُو كسَكرانٍ ومَا هُو بسكْرَانٍ، وتتلوَى لهُ كَمَوجٍ يَشتَهي غَائصًا.

تُلقِي بأطرَافِ شَعرِهَا للرِيحِ، فَتختَلسُ مَا بَقيَ مِن حِسٍّ فِيهِ، وتُحيطُه بِعطْرِ غُوايةٍ لها شَذَى سِحرٍ، وأريجُ هَوى لافِحٍ، يَأخُذُ باللُّبِّ، فَلا يَملِكُ إلا أنْ يَتبعَهَا، مَنْدُوهًا بِندَاهَا، غَائبَ الإدرَاكِ إلا عَنهَا، مُشهِرًا خُضُوعَهُ لمشِيئَتِهَا، فَلا يَعِي سِواهَا، ولا يَشُمُّ غَيرَ هَواهَا، ولا يَقتَفي إلا مَسَارهَا، مَسلُوبَ اليَقظَةِ، كأعْمَى يَجتَازُ دَربًا يَألفَهُ.

وتختَالُ الغَاويَةُ في فَورةِ يَقظَتِهَا، تَنسَلُّ إلى بَحرِهَا، تَغيبُ فيهِ بقدَمَيهَا، فسَاقَيهَا، فَخصْرِهَا، فَصدرِهَا، وخَلفَها يكونُ، يخوضُ في دُنياهَا، يَراهَا، رُبَّما، لا يُخفِي الماءُ مِنهَا شَيئًا، فِيما يَغربُ بِبدَنِهِ في أُفقٍ مِنْ مَاءٍ وظُلمةٍ، لِيدنُو مِنْ تَرانِيمِهَا المُلغِزةِ، حَتَّى يَخرجُ عَنْ فَضَاءِ

هَوائِهِ إلى دُنيَا مَائِها، وفَوقَهُ حَنايَا مُويجَاتٍ خفيفةٍ تَنفَرقُ عَنْ مَسارِهِ الخَافِي، ثُم لا يَلبَثُ أنْ يَسكُنَ قَرارَ البَحرِ، ويَزُولُ أثرُ وجُودِهِ.

ويَبقَى صَوتُ رَقرَقةٍ خَفيفَةٍ لموجاتٍ لاهيةٍ، يَرغُو ظَاهِرُهَا، وتَنقلبُ في خِفَّةٍ عَلى نَفسِهَا، لتَنبَسطَ وهي تَتهَادَى إلى الشَّطِّ، تَخُطُّ مَلامِحَ حِكَايةٍ جَديدَةٍ، وتَنسحِبُ مَرحَةً، لتَلحَقَ ببَحرِهَا العَائد إلى الغَاويَةِ في دَرْكِهِ، تَنهَلُ مِنْ رُوحِ غَرِيقِهَا.

القَمَرِي

ينبسط الليل مثل المدِّ على رمال اليوم الدافئة، يغمرها ببرودته الطازجة.

وخيالاتي تعشق الليل، فما إن أضع جسدي المثقل بأسباب النهار حتى تأتيني، تغزو رأسي من كل الجهات، تتدفق مثل ريح بين أشجار غابة، تضيء كل الأضواء، وتشعل كل النيران، وتثير كل ما في قشرة مخي من رمادية، وتفرد كل السبل إلى كافة الأنحاء.

أستسلم لليقظة الغائمة، ولا أملك إلا الاستسلام، تأخذ بي إلى السماء، واستفهامات عن نور ونار، وتَهوي بي إلى ثَرى الدنيا، وتَعجُّبات عن آيات بدء، ومعارف مهجورة، ومعاني النهايات، وإن كان ثمَّ نهايات، يتملكني خَدَر يقظ، أسترخي على الحافة بين الفهم وبين الوسن، وأفتش عن مبرر يبيح لي الاستمرار، فيما تغوص بي في غيابات نفسي، ، فأجول دهشاً بما تزخر به أركاني السحيقة؛ أبعاضٌ من كل شيء، إذ ترِدُ عليَّ أطراف قصة، أو شذرة من فكرة، اتبعها

مقدار جملة، لتنسل بي إلى مدارات من تساؤلات عن ماذا؟ وكيف؟ وإلام؟

ولا يتيح لي قَدْرُ الليل، المستمتع بسهدي، فرصة ترتيب ذلك الكون المبعثر، وتثقل جفون الليل، هكذا يكون الأمر دوما عند منتهاه، وتناوشني غيبات وَسَن متقطعة، فأجاهد للمواصلة، وأبوح بتعلقي بيقظتي.

وينسحب الليل، ويشرع أول اليوم في وخزي بالنوم، وتنطفئ كل الأضواء، وتخمد كل النيران، وليست إلا روحاً ساكنة في موتها المؤقت، وجسداً ينطوي على عشق نائم ، ينتظر ليلا آخر.

بعض من سفر

يخوض في سبل الليل والمطر، وحوله كانت خفقات الماء المنهمر تغيب في ألق الماء الجاري، تبعثر تلاوين الضوء المنثورة بين المصابيح المتواترة، تهيل على الشوارع المطفأة ظلا كثيفا، يمتزج بخطاه الموغلة في صرامة الرذاذ، فلا يملك رجوعا لترانيمه، التي يحدو بها ذاته في سفره، فيخوض في طوفان الضوء السابح في عتمة الماء، يتلمس رسمها المتروك على الجدار، ويُنصت إلى نشيج انتظارها المنقوش في تفاصيل نافذة بعيدة، ويمضي، يواجهه الطريق، ورائحة الجدران العالقة ببقاياه، تناوش ليله البيوت الواجمة، فيأتيه طائف من ليلها، يُظهره على بقائها، في مكانها، ترقب سكون المداخل، وهي ترقب مجيئه، لتحل في لحظة وصوله كالفرح المباغت، وفي جسده يحسُّها، كالحزن القديم، وفي روحه يشعر بوخز البعد، والطريق، يغشاه المطر الآخذ في الهطول بطيئا لامعا، يعكس في حنايا قطراته ملامح وجهه المسافر، يقصد موطن اللقاء، يحمل إلى كفيها بعضا من برودة المطر، وأزمان غيبته.

رائحة المدن

عاد إلى محطة وصوله، غادر القطار، فاجأه وجودها في انتظاره، نفس المحطة التي ودعته فيها. رائحة الحرب ما زالت عالقة به، تمنى لو زالت قبل ساعات الإجازة، وكان القطار ما يزال على الرصيف، وصوتها الذائب في الضجيج يخبره أن ما جاء إليه صار أقسى مما جاء منه، وناولته بعض زهور جافة، وحزمة من الرسائل ، وبعض صور، واستدارت مبتعدة، مثل دخان كثيف يتلاشى.

لم يفق من صدمة الاستقبال إلا بفعل ضجيج الطريق، سار على غير هدى، تتخبط بأذنيه الأصوات، وبجسده الأكتاف المزدحمة، وفي جرحه الطازج كانت صورتها تندس كالملح، فلايدري له وجهة، ويفكر أن الحرب قد سلبته تاريخا وزمنا، وها هي تسلبه حبيبته، وها هي المدينة تضمخه برائحتها الوحشية.

يفترش أحد الأرصفة، يستند بظهره إلى جدار لا يعرف لأي شيء هو، يفرك الوردات الجافة بين أصابعه، ويلقي بالخطابات

اليابسة الأوراق إلى بركة طينية في الطريق، تدهسها السيارات العابرة، يتناثر الماء الداكن عليه، يقوم، مرقشا بقطرات طينية ضئيلة، يحمل مخلاته، يعود إلى المحطة، يفكر في طرقٍ لها رائحة المتاهة، وأناس يفوحون بالغربة في شوارعهم، ومدنا لم يعد يعرفها، يركب القطار العائد إلى رفاقه، فلا يعجبون من عودته السريعة، أو من تلك الرائحة الثقيلة التي تفوح منه.

رحيل آخر

ذات يوم بعيد، صنع لنفسه قاربا، وغاب في البحر.

كان يعلم أن أحدا لن يفتقده، وكان يعلم أن أحدا لن يقف على شاطيء البحر يترقب عودته.

صار قاربه دنياه، وأرضه، وأصبح له موطنا ووطنا، يجول معه حيثما عَنَّ له التجوال، ويسكن حينما يرغب في السكون، ولا يرسو إلا في مراسيه التي يقصدها. لم يكن بحاجة إلى مساحة أكبر مما لقاربه، فكل المسافات تمر به، ويكون إلى كل الآفاق متى شاء.

ولم يكن يرسو إلا في الجزر المهجورة، يتزود بماء الأرض العذبة، وخيرات الأشجار البِكر، ولا يبيت إلا في قاربه، مهده المتأرجح، يهدهده، فيما يحكي له البحر عن خفقاته، وحكايات أمواجه، وتاريخ الملح.

صبَّت عليه السماء ماءها منهمرا، وحطَّت جبال الأمواج على وطنه الصغير، فغمرته بملحها، حتى كاد يغيب فيها كلقمة في حلق

شَرِه، وسيَّجَه الليل بقسوته الباردة، وصرَّت ريح المدى على كل أنحائه من كل أنحائها، ومرَّت به النَّوَّاتُ يعانيها،-ثم يخرج كالوليد مضمخا بمخاضٍ عَسِر، ويعاود رفع رايته الساذجة، على صاريهِ الصارم، ويشد حباله التي ارتخت، وينغمر في المدى، طافيا، مثل روح من الفلِّين، تحمصت بشمس مالحة، ويبَّس جلدها بردٌ مائج.

ولم يكن يحلم إلا بما يعاينه، ويعانيه، فلا يعود يعلم أحلم ما يرى أم يقين.

ذاك اليوم، تيقن أنه كان حلما، فيه رأى أرضا، وفيها مثل البئر، ولكنها أرض لم يرها قبلا، وكانت البئر جافة.

أدرك أنه صار يُبحر على حافة البحر، وأنه لم يعد قادرا على معاركة الأمواج، أو مماكرة الريح، وأدرك أن الزمن قد تراكم في جسده حتى أثقله، كان يعرف أن الزمن غير مقدور على التفلت منه.

لم يعد يقوى على شد الحبال كما ينبغي، وباتت هدهدة القارب تؤلمه، ولم يعد يسمع حكايات البحر في لياليه التي زادت قسوة برودتها.

أدار دفة قاربه جهة الأرض التي كانت غادرته، تصلبت يداه على الدفة، فاندفع القارب حتى انغرزت مقدمته في رمال شاطئ لا يعرفه،لمح أناسا، لم يلتفتوا لوجوده على أرضهم، وأضواء ليس لها صفاء نجومه، وصكَّت سمعه أصوات آلمت مسامعه، وغمرت أنفاسه روائح متناقضة.

وخزه شعور عميق بالغربة، ولم يستطع النزول عن موطنه، ولم يقدر على العودة إلى بحره، فترك بدنه يرتمي إلى رحم قاربه، المنغرز الآن في شَرَك الأرض، وانفرد كمجداف كهل، وجهُه إلى سمائه، لا يرى غير الجوانب الخشبية لحدود وطنه، تحوطه، وتصعد من حوله، فيما يغيم بصره، وكأنما يغوص في بئر سحيقة، جافة، وفي عينيه تعلقت صورة أخيرة، لنجوم يعرفها وتعرفه، وسماء تقترب منه وحده، لتصعد به.

عودة

أسباب من زمن، ومسافات أرض ، جابها غريبا، ثم عاد، يحمل تاريخا من ذكريات، وتباريح بُعدٍ، ولهفة إلى ما كان، يقترب من زمانه القديم، ومن أماكنه المرقومة في ذاك الزمان. يرى للسماء لونًا لم يعهده، يغشى فضاء مسيره، وتنسل إلى حواسه روائح لا يجدها في ذاكرته، وغمغمة أصوات تطمس ما كان منسوجا في تاريخ مسامعه، وغبار أهوج، لا ينتظم كعادته على مسارات ضوء آخر النهار، وجفاف يبست له كل نداوة يذكرها.

عند الباب، ذي اللون غيرَ اللونِ، تحت مصباح يتثاءب شاحبا، يطرق الباب، لا يسمع صدى الطرقات التي يعرفها، ينتظر لوهلة، ينصت فيها لصوت تهشم يحيط به، ويرى شظايا أزمان وأماكن، وأحداث، وروائح، وأضواء، تتناثر من ذاكرته على رطوبة البلاط المكحوت بالعتمة، فيسرع عائدا، بينما الباب ينفتح، وتندفق من خلاله ريح مخنوقة، لزمن ميت، تفور في فضاء المدخل، فلا تعود حياة.

نثار الانتظار

تجوب في تفاصيل النهار، وترجع، تفرد أنحاء نفسها في مكانها، وتنفرد على أريكة صمتها، فيخطر لها تاريخ رحيله، وزمن المجيء، تذكر المسافة، وترجف، وفي مخيالها وقع خطاه إليها، فيدركها الحنين، تدور على أشيائها القليلة، تحاول أن تعيدها إلى مواضعها حين يمضي، فلا تبوح بقدر الغياب حين يعود، وتكون إلى قلب النافذة المفتوحة على ملاء العالم وفراغ غرفتها، تحط ذراعيها على الحافة، وتغيب في يقين الليل، وعزلة الغائب في كثافة البعد.

فيأتيها؛ حلما، يجاوز المادة والمدى، يكلمها عن مدارات وجوده، بين نهارات الموت، وليالي البوح بالألم، وعن رنين السكون في صوتها.

وتأتيه؛ رؤيا، تمازج نقشها المحفور في خياله، وترنو إليه، تنهار عيناه، تروح إلى أساها، فيما تسَّاقط أنحاؤه إلى الأرض، فيتباعد الغبار، يملأ فراغ المكان حولهما.

يعود إلا تلاشيه، وتعود إلى أشيائها، وباب فراغها، تنفض عنه الطَرَقات الصدئة، وتنغمر في بقايا من رائحة حلوله في وقتها، وتؤوب إلى النافذة، ترقب طريقا بدا كمزيج من حطام نجوم، وخطوات راحلة، وماء، ويرقبها الطريق، ككثافة قاتمة يصوغها الضوء الخلفي، فتوقن بعزلتها، وتغادر إلى سبيلها، تطوي حزنها، وتحمل ثقل المطر، وتجول في الدروب والمسالك، تنشده في النوافذ المطفأة، وفي شروخ الضوء النابتة في قتامة الأبواب، وفي غيمة الندى الملامس لجسدها.

العابِرون

تريق بعضا من دموعها في كفها، تغسل له وجهه، كفيه، وتبلل شفتيه، فيرشف القطرات الممزوجة برائحة الجسد.

وينطق: "ها قد أعدتني مرة أخرى".

تنطق: "أنت لم تأت!" وتغادرُ.

تطوفُ في البرية الأولى، تصير وداعا للمهاجر، وتركل الباعة على أبواب المعابد، وتتهيأ على مذبح الملكوت، فتكون رغيفا يقضمه الملوك والشحاذون، وحبَّات فَقْدٍ يسكبها الحبيب على قميصه، ويهذي باسمها، فتتجسد له نافذة، تطل عل السكك المتروكة للغبار، وأسفارا مبعثرة، وفوضى مقيمة، وتعود.

يسألها: أين؟

ترد: كنت أجوب في قصائد الشعراء.

يسألها: مَلكَكِ الشعراءُ؟

ترد: بقدر ما ملكوا المواهب.

يسأل: والعابرون؟

ترد: مروا جميعا عبر سريرتي.

وتردف: كنت لهم الوجع الموحى.

يقول: وأنا من الموجوعين.

تصمت، وتقوم إلى أشيائه، تطوح بالكتب والأقلام والأوراق، تلتقط إحداها، تقرأ:

"... وتعود إلى أشيائها، وباب فراغها، وتجوس في بقايا من رائحة حلوله في وقتها، وتؤوب إلى النافذة، تضفر بقايا ليل ببقايا كائن وحيد، وتطوح في الأرجاء بقطع من ملل، تنكسر في زمن انتظارها، فتهيج العتمة الكامنة، وترتقب المجيء ..."

تتمتم: ولا يجيء.

وصغيرة كانت الابتسامة على ملتقى شفتيها، ولكنه أدركها. وكانت النافذة مواربة، والفراغ شامل.

يناديها، ويبحث عنها في فوضاه.

تناديه، وتبحث عنه في بقاياها.

فلا يكون أحد.

احتضار

ابتاع باقة زهور؛ وردتان لهما رائحة الصباح الطازج، ولون ضباب الفجر، وبعض وردات بنفسجية، خماسية الأوراق، وفي مركزها النجمي عين تفصح عن شغف بالذكرى.

حمل الباقة الشهية، وسار تحت شمس تصب ما عنَّ لها من حرارة، يسيل صهدها على طزاجة الأوراق اللدنة لزهوره، ولا تعبأ به.

يبحث عن ظل يأوي إليه، أو يمرق تحته، لا يجد غير اشجار عجفاء، متهدلة غصونها، تدل الشمس على مواضع خطوه، وغبار صيفي يفور هائجا في مسامات الهواء المتاحة، ويستقر على الورقات البِكر، يشوش عذريتها بغبارية غشيمة، فتذوي أطرافها ذعرا.

يجهد في الفرار من لهب الشمس وشراسة الغبار، بما بين يديه من جمال غض، غامر باقتنائه، يبحث عن ماء ليرشه على الورقات الآخذة في الترهل، يركض في المناحي المتاحة من الظل المتشظي،

يفكر أن مغامرته الجمالية، تنتهي بقبح واقع، هل يرجع بها إلى البائع، ليعيدها، بدون مقابل، ليحميها من الموت، لكنها لن تحتمل رحلة العودة، ولن تبقى حيث يذهب بها، وفي قلبه غصة بمشهد احتضار ورد لا يملك لنفسه شيئا.

يجلس على حافة الرصيف، تمر السيارات أمامه، تثير عفار الطريق عليه، وخلفه، يعبر المارة، يسكبون عليه نظرات أحرَّ من شمس الظهيرة، يضع الباقة إلى جواره، يرقبها، وفي عينيه كان نهر من أسى، ينثال جافا إلى وجنتيه.

غموض

تسلل بخفة، تجاوز الحبل الأرجواني المرتخي في أبهة بين العمودين الذهبيين، وفي لحظة، كان قد أنفذ خنجرا في وجه الجيوكندا، ثم شق بنصله بين عينيها، صاعدا إلى مفرقها المصقول، فغلالتها الشفيفة، وتجاوز إلى الأفق الضبابي الخشن، ثم عاد إلى جسدها، وحرير ثوبها، وشق ما بين كفيها المتلاحمتين، ومسند مقعدها، خارجا إلى الإطار الذهبي ، فانجرح طلاؤه، وبدت مادته الخشبية.

في اللحظة ذاتها، كان الحارس مصعوقا، شلته المفاجأة، وارتسمت على وجهه كل ملامح الكوابيس، وضربت قلبه مطرقة من حديد الأسى والذهول، فاندفع قبل اللحظة التالية، كعاصفة، نحو الرجل، طرحه أرضا، وارتمى فوقه، جذب الخنجر من يده، وسكن الرجل مستسلما، وابتسامة هادئة تعلو شفتيه، وبفورة بركانية، طعنه الحارس بالخنجر، وهو يصرخ: "*يا لك من همجي*"،

وطعنه أخرى، وهو يصيح فيه: "*يا لك من وحشي جاهل*"، وأخرى: "*أي قلب قاس يدفعك إلى تدمير ذلك الجمال*".

وعلى الأرض، كان الدم القاني يشكل خلفية سائلة للجسد الساكن، ينتصب في قلبه النصل، ممزوجة لمعته الفضية بلون نزف أرجواني، وعلى وجهه، كانت شفتاه الهادئتان، وعيناه الناظرتان إلى كل الجهات، ترسم ملامح ابتسامة غامضة.

وَرْدٌ يَذْهَب

الشمس في كبد السماء ناصعة، تمتد خيوط نورها الفاره إلى جنبات الأرض، تسكب حرارتها الصيفية على أجساد ماضية إلى رزقها، يلوذون ببقايا ظلال ذابت على وهج الأرصفة الضيقة، يخوضون في كثافة الغبار الراكد على أنفاسهم، يحمله الصهد الصاعد من الطرقات، ويمرون إلى جوار السور الحديدي المطرَّز بتشاكيل أرابيسك صُلبة، يرون الحديقة الشاسعة خلفه، منظومة في أبَّهة ملكية، وفي صدرها ينهض المبنى الفخم، تكسو واجهته ألواح من زجاج داكن، يحول بين النهار الناصع وحرارة الشمس الفائرة أن يتسللا إلى فضاء الداخل، فيسيلا على ملاسته اللامعة، مزاج من صهد ونور، إلى أرضية المدخل الفخم، تردهما بلاطات الرخام الصقيلة، ببرودة حجرية، عن المدخل الفسيح، تزين جنباته نخلات عقيمة، لا يطولها الغبار المتسكع، وصفّان من أعلام هامدة من حر اليوم، لا هواء يرفعها، ولا تقدر على الرفرفة، فسكنت أنسجتها الملونة مستسلمة، كل على ساريته، المنتصبة إلى السماء، كرمح خشبي

مصقول القناة، لا نصل له.

وفي الداخل، كانت الستائر القطيفة الكثيفة، تنسدل خلف الزجاج المنصوب للشمس، تحول بين ما تسرب من نور أو حرارة وبين المروق إلى فضاء القاعة الدائرية الشاسعة، كقبة سماوية، تتماوج الستائر متمتعة بطراوة الهواء المبرَّد، ينساب عليها من فتحات دقيقة مستورة في جنبات القاعة العالية، وبضوء المصابيح الصاخبة، المنثورة في الأنحاء، فلا يعود في المكان ظل.

وعلى المقاعد المخملية الوثيرة، المرصوصة بعناية خلف المنصة الدائرية، كانت وجوه ناصعة، ناعمة الوجنات، لبشر خرجوا توا من غرف راحتهم الباردة، يمدون أكفا رقيقة الحركة بأسلوب دبلوماسي رائق، يتصافحون بأناقة تعلموها، ويلتقطون حبات الفاكهة الشهية الألوان، وزجاجات المياه المعدنية، وأوراقا مسوَدَّة بتقارير عن أرض وبشر، وحصار، وحطام بيوت، وأطفال صرعى، وجدار، يقلبونها بتأن ملحوظ ويتبادلون التحايا بابتسامات منمقة.

وأمام كل منهم كانت سارية قزمة، تحمل علمه المصنوع من معدن جامد، لا يحركه شيء، وباقة زهور مقطوفة توا، منسقة بعناية

فائقة، تلفظ ورداتها الزاهية آخر لحظات حياتها في وجوههم الشمعية، وتسكن محتضرة في جمال يغري بعضهم بالالتفات إليها، ولا يلبث أن ينصرف عنها لتزيِّن بموتها الصامت مقامَ حضورهم.

ويكونون إلى كلامهم، وحماسهم الإيقاعي، وتنديدهم الأبدي وتصفيق عابر، لخطاب ثائر عن أرض هناك، لا تجد من يرفع عن وجعها الألم.

وهناك، في الأرض غير البعيدة، تحت حرارة شمس اليوم ذاته، يهرول صبي يافع، متنفسا الغبار الساخن، يتعثر فوق حطام البيوت المفرودة في الطرقات، يركض، لا تُدهشه آثار الدم على الحيطان والأبواب وتراب الطريق، يهرع إلى الخوذات المتترسة بخوفها، يقعد تحت جدار منقوش بآثار طلقات، يُخرج مقلاعه، يضع في قلبه قطعة حجر يجيش بالقوة، وينتصب كنصل رمح حاد، يرفع المقلاع فوق رأسه، يحوم به سريعا، ويطلقه، صارما.

وينطلق تصفيق حار، في القاعة المخملية المبردة، لا يحرك غبارا فلا غبار، ولا تأبه له الستائر المنسدلة على خمولها، ولا الوردات الذاهبة في موتها.

ويخرج الجميع هادئا، في وقار، وعبر الباب الفخم، يمرق كل منهم سريعا إلى رحم سيارته الداكنة، يحاذر أن تدركه لفحة من قيظ النهار، أو يدركه الغبار السابح في النور الحار لشمس اليوم.

شجرة أم

بيت صغير، يستر فضاءه الضئيل حوائط من حجر مرصوص، وسقف من عيدان خشب مستطيلة، تطل نوافذه على أرض حبلى بالخضرة، تتفتق بذورها في رحمها، وينسرب إليها الماء، فتسفر عن أعواد طرية السوق، تشق صلابة التربة، وتصعد إلى الشمس، تنهل من ضوئها والهواء، وتغيب جذورها في ظلمة الأرض، ترشف من رطوبتها الماء.

وبخطوات حريصة على الأجنَّة النابتة، يمر صاحب الأرض، يقيم المائل منها، وينثر على ضعفها أسباب البقاء.

وفي النافذة، تطل امرأته، ترسل له بابتسامة حنون، تحمل بين ذراعيها رضيعهما، يُنهنِه لابتسامتها، ترفعه قليلا، لينظر إلى أبيه، وليراه ثم تتوارى به إلى أريكتها لتُرضعه، ويمضي الرجل إلى حقله يرعاه.

وفي المساء، يكونان إلى فضائهما المكنون، يلاعبان حبة عينهما،

ويحكيان عن أجداد، وآباء، وأطفال كالأوتاد، ومسجد أقصى، وحقل ظمآن، وشهداء، وأصحاب في الأصفاد، وأيام وليدهما الآتية، وعن صباح يوم آت.

يذهبان بعيونهما عبر النافذة إلى أقصى السماء، يريانها ترتع بالنجوم، ويؤوبان إلى الأرض الممدودة أمام دارهما، يريانها تربو بزيتونها إلى أقصاها .

وتحل السكينة في جسد الرجل، وينام الصغير، ويحط النعاس على جفنَي أمه، ويتبخر في مسائهم رهق النهار الحار، فيغوصون في برودة النوم، وهدأة ليل سرعان ما يذهب بهم إلى فجر يوم آخر.

وكان الصباح، ليس كأي صباح كان، رطيب الفجر، ثقيل العتمة، يقومان إلى صلاتهما، ورضيعهما، وحقلهما الصغير، تفتح المرأة النافذة، ولم يكن للنهار نور، يسمع الرجل شهقتها، يُهرع إليها، عيناها مشدوهتان، إلى الأفق ...

أي أفق !

إلى الحقل ...

أي حقل !

ليس ثمة حقل، وليس في الأعلى إلا بضع سماء، وضوء خافت ملبد بالظلال، وغبار يسرح في الفراغ الضيق بين النافذة وبين جدار هائل، انتصب أمام عيونهما، كبرزخ من ليل رمادي، حجب عنهما الحقل، وجل السماء، وضوء النهار، يزحفان ببصريهما إلى أقصى اليمين وأقصى اليسار، ليس إلا الجدار.

رنا إلى وجهها الشاحب، قائلا :

ـ كنا نحلم ألا يكون، وكنا نوقن أنه سيكون، وهاهو قد كان.

ثم نظر إلى وليده قائلا :

ـ لم يدعوا لنا إلا سبيلا واحدا، وجب الخروج الآن.

بذراع ضمت رضيعها، وضمت بالأخرى زوجها، وقالت :

ـ ليرعك الله ويرعانا.

وخرج.

وظلت تنتظر، وأيام تمر، عسى أن يرجع، ولم.

وجاءت البشارة،

ـ لقد صار إلى جنته، فوق كل الأرض، وفي كل السماء.

هكذا أخبرها الأصحاب.

وما لبث أن مر المساء، وهي تداوم بين الفرح والبكاء، حتى أدركها الفجر، وهدير حوَّامة تطمس صوت أذان بعيد، تُسرع إلى رضيعها، يثبت الهدير فوق الدار، يتخبط في الأرجاء، وتسمع الصوت المعهود، لأزيز موت مصبوب من علٍ، فتعدو بولدها إلى الخارج، وفي لحظة تغيب في بحر من غبار، وتستحيل الدار خرابا، ولا يبقى غير الدمار ودخان كثيف.

لحظات مرت كالخديعة المروعة، على المسجاة تنكفئ كالرحم على وليدها، يُخفيها ركام الأحجار، محصورة بين الجدار القائم كشاهد قبر هائل، والمتربصين في الطريق، يلهون بقنص ما يمر أمامهم من أحياء.

أفاقت على بكاء الصغير، تلمع عيناه الرقيقتان بالدموع، ويخبط بكفه الدقيقة في الفضاء، يبحث عن حليبه، وما عاد لديها، وما بقي

من الدار شيء، تضمه إلى صدرها، يلمسه، برغم التراب ورائحة الحريق، يسكن برهة، ثم لا يجد شيئا، فيأخذ مجددا في البكاء، تقوم به، وتهرول في الفراغ الضئيل المتاح، كشعاع يتردد بين المرايا المتقابلة، تصدم الجدار والأحجار، لتفتح طريقا إلى الحياة، ولا جدوى.

وتعاود، كمقاتل مأسور، أمامها الجدار، يحول في صلافة صلدة بينها وبين حقلها، وبين ذراعيها رضيع يتسرب إلى بدنه الموت، وحياته هناك، خلف الجدار المنتصب كالهاوية، لا سبيل إلى ارتقائه، تراه يبقر بطن الأرض صاعدا، وفي أصله ترى بعض الشجيرات والأعشاب تقف متماسكة، وتعلم أن جذورها الحية قدرت على البقاء، تقعد إلى جوارها، تضع وليدها على الأرض، وبعينين يملؤهما العزم تدس كفيها في التربة المثقلة بالحِمل الجاثم عليها، تزيح التراب، وتبدأ في الحفر.

بدأ الوليد في البكاء، وهي تدفع بكفيها الرقيقتين في التربة، غير عابئة بالألم الصاعد من أطراف أصابعها إلى ذراعها، إلى عقلها الشارد بوليدها الجائع، تدفع كفيها كالمحراث، تحفر، لا يشغلها لون

الطين والصخر الممزوج بحمرة دمها النازف من يديها، يزداد بكاء الوليد، وتزداد ضربات يديها، تزيح كل ما يقف أمامها، غائصة بهما إلى جذر البرزخ الشاهق فوقها، وتداوم إلى الأسفل، حتى صارت في قلب الحفرة العميقة، لا يبدو إلا رأسها، يهبط ويرتفع، تزيح التراب بعيدا، وتعاود، ويظل الجذر الإسمنتي ممتدا، ويعلو صراخ الولد، فتغيب في الحفرة، يعلو نشيجه، تسمعه، تواصل بكفيها المتهالكتين، في سرعة وجنون، ما عادت تُخرج التراب، وما عادت رأسها بادية، وتغوص في غيابة الأرض، وحول الحفرة يرتفع الردم كالتلة، يعلوها صراخ الرضيع فتمضي في غيابتها بلهفتها عليه، تشق صلابة الأرض، تنبش التراب المركوم في الأعماق، وينبش حياتها، وتظل غير آيسة، مجهدة، حتى لم تعد تسمع الصغير، تحاول الالتفات، ليس سوى ظلام متراكم، ثقيل الرطوبة، يحيط بها، تدفع بكفيها الواهنتين الداميتين، لتمر عبر الظلمة الترابية، فلا تعود تقدر، وتسكن.

ولم يعد الصغير بقادر على مزيد بكاء، فنام، وحوله الموت يرقبه، ينتظر مرور ما بقي من زمن له، ويغادر الغادرون، ويعود

الأصحاب، يتسللون إلى الركام الباقي، يجدونه، يصيرون به إلى دار لما يحجب نوافذها الجدار بعد.

ويكون صبيا، يحكون له عن أبويه، ودارهم، والحقل، فيروح حيث صارت أمه كالبذرة في رحم الأرض، وفي المكان، كانت شجرة فريدة، وحيدة، يصعد جذعها الناعم نحو السماء، تمر ساقها عبر نقب صغير في الجدار، وكذا كان الأولاد، يمرون عبره من بيوتهم إلى حقولهم وحاجاتهم، يستظلون بالشجرة، ويصعدون ساقها السامقة إلى فروعها المبسوطة بالظل، ومعهم يصعد، يحتضن الجذع اللدن، يقطف كلٌ لنفسه ورقة من أوراقها البضة، تمتلئ بالنُّسغ الأبيض الحلو،، يضع طرف الورقة في فمه، ويرضع نسغها الحليبي، فيَشُم له رائحة كأنما تنبعث من ذاكرته، مختلطة بلون غبار، تحوِّم مثل ذكرى غائمة، لا صورة لها، وإحساس طفولي ينبعث من أنحائه.

أَرْوَاحٌ تَتْرَى

صبي آخر، يخرج،يغادر ما يشبه الدار، إلى ما يشبه الطريق،يمر بأشباه بيوت، يرنو إلى الجدران التي كانت بالأمس،ولم تعد، إلا كجذوع غابة عتيقة، طالها الحريق،يلمح كِسَرَ حروف على أسطح أحجارها المنثورة،تمد معانيها عبر ركام من دخان وغبار كغريق،صبي، يحمل سلة طعام معمولة من شرائط خوص،يحملها في حرص، وعلى ظهره حقيبة المدرسة،يمر بزملائه الداخلين إلى أشباه فصول، غير عابئين بآثار الطلقات الغائرة في حيطان فصولهم،وكأنها لوحات تعليمية، تساعدهم على تذكر درسهم القديم الجديد، ولا بالطاولات المحترقة أسطحها، بحروق تشبه خرائط وطن، لا يملكون لهم فيه أرضا، ولا يكتنف تشردهم فيه حدود.

يرونه يجتازهم، ينادونه،يرد بابتسامة صافية، ويرفع يده بسلة الطعام ليريها لهم، ويمضي في طريقه،يتهامسون فيما بينهم، حتى

يغيب عن أعينهم الشغوفة.

ويَجِدُّ في سيره، يتجاوز زحام الدور الصغيرة، وخياما تتدارى فضاءاتها المعتمة بقطع من نسيج أغبر، وحيطان بيوت من طين له نفس الغبرة، تتدثر فراغاتها الداخلية بألواح من صاج، أو عروق خشب، تمنع بعضا من حرارة شمس، وبعضا من بلة مطر، ولا أبواب لها.

يصير إلى حيث حقول، تمتد على الحدود، بين وجودِ الساكنين في شظف حياة، ووجودِ الناهبين اللدود،تصطف فيها كتائب من أشجار ليمون، وبرتقال، وأشجار زيتون، حباته نضرة،متواترة جذوعه، كجند متصافة في جيش الخُضْرَة، تتأهب للدفاع عن آخر ما بقي من مواطن جذورها،تلمع في كنف خضرتها الكثة حنايا حبات تتحدر من أطراف فروعها، تحيطها أوراق كالنصال المنصوبة، تحمي لمعة الثمار البضة.

يمر الصبي على الدرب الرملي الأصفر بينها، تداعبه ظلال طرية، تسكبها عليه الفروع المورقة،يمد يده لأعلى، وبكفه يمر على الأوراق،يصافحها بدفء القادم من غياب، ولمس العابر، وسكون

المودِّع، تميل فروعها مع كفه لبرهة، ثم ما تلبث أن تؤوب إلى موطنها، تنثر حوله رائحةً يحبها، رائحة العصير المخبوء في لحم ثمارها، تودعه، وينسم عليها بابتسامة الابن المغادر من وطنه إلى وطنه، يودعها.

ويكون حيث تنتهي الحقول، يجتاز أرضا من تراب مجهول، يصَّاعد غبارها الثقيل تحت قدميه الجادتين في المسير، يرتفع إلى السلة الخوص المقفولة على سره الصغير، يرفعها لأعلى ؛ خشية أن ينسرب الغبار الغريب عبر خوصها المجدول، فيطلِّع على المخبوء.

وفي البعيد، في ما وراء بحر التراب الممدود، تقبع عربات متجهمة، وبزات عسكر، وحدود، وجدار مقدود من صلادة رمادية، يمتد من أقصى البصر إلى أقصى البصر، يحجب خلفه كل سماء، كل أرض، وكل وجود، تشقه بوابة ضيقة، تسبقها سواتر من حديد متراكم فوق حديد، وفوقها برج مشيد، محاط أعلاه بزجاج يرصد كل جهات الأفق، وخلفه يتهيأ الراصدون لقنصهم، بأسلحتهم المشدودة، إلى الصبي المرصود.

صبي، يتقدم بثبات، فيسكن كلُّ الصوت المحيط، إلا وقع قدميه

الصغيرتين، على أسفلت الطريق، يواجه العرباتِ الداهمة، تدمدم محركاتها وتظل في مكانها، والبزاتِ المرتبكة في اختبائها، والبرجِ المكين، يصد زجاجه نور الشمس المتدفق فوق الجميع، ودفء اليوم، فيرتدا عائدين إلى صدر الصبي.

يقف وسطَ السكونِ المرتبكِ لكل موجود، يضع السلة على الأرض، يفتحها بحرص وئيد، يمد كفيه الدافئتين إلى رحمها، فتبتهج رفرفة داخلية، يضمها بين كفيه كالوليد، وينهض، ينظر إلى الجدار المائج في سطوته والبرج المريب، صبي مستقيمُ اليقين، لا يستريب، يرفع ذراعيه معا، إلى السماء، يتمتم بآخر كلمات شهيد، ويباعد ما بين كفيه، فينطلق عصفور، يصعد كنَسَم الروح.

وفي اللحظة ذاتها، تفزع الطلقة، تمرق عبر الفراغ المختبئ وراء زجاج البرج السميك، وعبر الدفء والنور الغامرين الساكنين على صدر الصبي، إلى قلبه، فيصير إلى أرضه، تحتضن جسده الرقيق، منفردا، مستقيمَ العود، وابتسامةٌ طفوليةٌ تُزهر على ثغره، وجبينٌ وضّاء، وعينان نابهتان لهما لون الزيتون الناضج، تتطلعان إلى سماء شاسعة، تضمان في مآقيهما خفقات عصفور، لا تحدُّهُ حدود، يحومُ

فوق الجدرِ والأسوارِ، يطوي الفضاءَ طي الشوق المنذور، يرمقه جيش منتفخ بالزهو، ممتلئ بخواء الخوف المطمور، ينفض عن ريشاته برد الأسرِ، ويجوب فضاءً، يعلو فوق الأرض، وفوق الحقل، وفوق الدور، ينظر صِبيَةً يخرجون، يحملون سلالا تحمل أرواحا، ويأتون.

شهْد الحقُول [1]

في الليل تنبت الأغطية في الزوايا مع همهمات قرآن، تنتظر المتعب بالفرار ليستريح ليله، وعلى كل شجرة قد يمر بها، تعلقت أكياس زاد لأجل قُوتِهِ في مناورته لمن يترصدونه، بعدما استباح غطرستهم، وقتل من طاله منهم مجردا، خبأته الحقول في حبَّاتها، والنحلاتُ في شهدِها، ودَارَته عيون العصافير، إلى أن أدركته الغرابيب، بعدما باحت به الجنادب، فارتقى عنهم، وبقيت الزوايا مفتوحة أبوابها، لم يغادرها دفء عبوره المؤقت، وبقي الزاد معلقا في الأشجار، لا تزوي ثماره أو تجِف، تحرسها روحه لأجل من يأتون بعده.

(1) إلى عمر أبو ليلى بطل عملية سلفيت في مارس 2019.

رغيف

يخرج الرجل مستترا بالليل، يربت على جيب قميصه الكتاني، يسمع خشخشة ورق مكتومة، يطمئن لوجود تصريح العمل في جيبه، يواصل مسيره، محاولا الوصول إلى حاجز التفتيش قبل أن يزدحم بالعمال العابرين.

يقف في الصفِّ بين خطين من السواتر الحديدية، ضيِّقٌ ما بينهما، وأمامه وخلفه يتراص عشرات من الباحثين عن لقمة العيش، في غربة تسكن أرضهم، ويتتابعون على البوابة التي تفحص حتى نفوسهم، تنزع عنهم إحساسهم بإنسانيتهم، ويمرون وفي قلوبهم صهد حانق، وظواهرهم كالأشياء.

ويخرج الولد إلى مدرسته، يخطو والليل ما يزال يشرع في الرحيل، ليصل في موعده، على الجانب الآخر من الجدار البغيض، يعبر حارات، ودروباً بين الحقول، وفضاءات أرض قاحلة، وحواجز تفتيش.

يمر بامرأة تقعد عند باب دار، تستند إلى الحائط المتبقي من دارها، وإلى جوارها صورة شاب، تحيط جبينه عصابة خضراء، وعلى الصورة كانت العصابةمعلقة، وتشوب خضرتها بقع داكنة لدم يابس.

يرى بضعة أولاد، في آخر عمر الطفولة وأول الصبا، يجمعون أحجارا صغيرة، يملأ كل منهم كيسه بما يجمعه، يلتقط بعض الأحجار ويناولها لهم، يردونها قائلين: "إنها كبيرة، خلها لك"، وينشغلون بجمع المزيد.

وكانت الأم في الدار، تنفض كيس الدقيق، لتضع كل ما فيه في الوعاء، وليس إلا ما يصنع رغيفا واحدا، وإلى جوارها وليدها، تهدهده، وتبدأ في صنع الرغيف، وهي تغني.

أنا أنت

الضوء في لون الحليب الرائق، ملموس بصفرة الجدران المحيطة بلمبات النيون، ينثال النور من حنياتها، تتشربه جعدات السقف، وعروق الخشب القديمة، تردُّه كيانا واهن البياض إلى المقام الأخضر، فتلمع حروف القصيدة المذهبة، المغزولة في جوانبه، فيختال ببريقه فوق الرؤوس الخاشعة، تتطاوح بين مشرق الضوء وقضبان الشباك الأخضر، المفتوح دوما، بين الحارة وفراغ المقام.

يتردد الإنشاد غائما رخيصا، وتتكاثر الشمعات على حافة الشباك، فيكون نور يغالب برودة الضوء المنثور على حبات العرق السخينة، وصعود الإنشاد قويا هادرا، مثيرا لرذاذ الهواء، فيندفق نسيمه إلى لهب الشموع الموقدة، يحمل تطوحاتها الولهى إلى جنبات الحارة الهادئة، فلا تكون ظلال، ويفوت نورها إلى ظلمة دكان "أم الخير"، حيث تبدأ تتعطر، وتلف شعرها الأبيض بقطعة ليل، وتحمل شمعتها، وتخرج.

للشمعة برودة سحابة، وعلى استدارتها حفور أصابع الماسكة بها، تمضي في دكنة الثوب والليل، إلى شباك اللهب الدَّاعيها، فتبدأ الأصوات تهدأ، ويطول زمن استغراق الرؤوس في التطوح، وتأخذ العيون المغمضة في الإفاقة، والأذهان في الانتباه إلى خطوات الآتية، حتى يعلق بصرهم وصمتهم بيدها، تضع شمعتها، وتدخل، لا تنظر إلى أحد، تتهادى إلى المقام الأخضر، تضع كفها حيث القصيدة، المرقومة بخيوط الذهب، فلا يبدو إلا **"أنا أنت"** وبينهما ينفتح المقام وتدخل، وتعود الحروف حيث كانت، وتظل الوجوه مشدوهة، وتمتد الأكف الوَاجِفَة، تدفع حيث **"أنا أنت"** فلا يتحرك شيء، فينشدون للذاهبة القصيدة، وتتسارع تطوحاتهم، ويدوي الإنشاد في أرجاء المكان الصغير، حتى يتصدع بياض الضوء على الجدران المتآكلة.

ويظلون حتى تلج الشمس طاقة الدخول إلى المقام، فيكون للقصيدة المرقومة لون الفضة المسبوكة، يرتد نورها إلى الشباك، يرحل حيث الفتائل المسودَّة، تنمحي في ذوب أجسادها المطفأة، ليغيب في لهب الشمعة الوحيدة القائمة.

العابر

توقفتُ، لم أكن في حاجة للبحث عن سبب، إنه مجرد مشهد حطَّ في بصري، فنسيتها، التي تنتظرني عند تخوم الصحراء، لتأخذني، كما ذكرت في رسالتها، إلى شجرة العشق النابتة في بحر الرمال، لن يكون سوى ظلها الوارف، والسماء، ونحن الاثنين.

كانت الشمس عالية، تعصر حرارتها في عينيَّ، وتسكب وهجها على كيان بعيد، يبدو كلوح من بخار تجمد تحت سطوة الحرارة، صفحة من الضوء القائم فوق كومة من الأحجار، لها بياض الجير الخامد.

أقترب، فتأخذ التفاصيل الخافية في التعين؛ لوح له ملامح الرخام، ينتصب وحيدا عند ركام ممتد من الأحجار، تحيطه آثار رمال منبوشة، لها قتامة الأعماق، وآثار نداوة ذهبت، بعدما حل في موضعها الجسد المطمور.

شاهد من رخام، ليس يحمل آثار غبار، ينهمر عليه عصير

الشمس الدافقة بصهدها، يفوت فيه، وينسكب على الرمال خلفه، فلا أرى له ظلا، وفي بدنه تستقر حروف غائرة، لعبارة تموج في قلبه كزجاج مصهور ...

إنْ تَكُنْ عَلَى الهَوَى قَادِرًا

فَإنَّ الهَوَى عَلَيكَ أَقْدَرُ

أمد سبابتي، وأكون ببناني إلى غور الألِف، يملؤني إدراك غير واضح للمعنى المستور، فلا أقدر على الإحاطة به، أتحرك ببناني إلى النون، أغمده في نقطتها، ينقبض كفي، ويبقى إصبعي كالنصل، مشيرا تجاه سبيلٍ، ينسرب إلى قلبي بيقين، ولا يدركه بصري، وبنصلي المشهر أجوس في أنحاء العبارة، حتى نهاية مسيل الراء.

لم تهبني التجربة إجابة، كيف للمقتول بالهوى هذا المثوى! وهذه الصحراء!

وهذا الشاهدُ، أهو علامة على أن جسدا يرقد هنا، أن روحا فارقت، وبات سُكناها رُفاتًا؟ أن وجودا سابقا لم يعد غير خيالٍ في ذاكرة العابرين! يمارس في مداركهم لعبة الحياة، يرقم حروفه على شاهد موته، تبدو كعلامات غير ذات معنى للعابر بها، ولكنها تمكر

به، إذ تلج إلى بصره، كصورة تنغمر في ماء ذاكرته، فتحرز وجودا متجددا، وهما بالخلود. لم يكن على الشاهد اسم، وحدها العبارة، وتحتها يبرز نحت دقيق التفاصيل لشجرة، لها لون المرمر، ورائحة تراب انسلَّ من بشر صاروا إلى مناياهم. كانت أوراقها تَرِفُّ، ولها هسهسة توحي إليَّ بشجرتي التي نويت إليها.

أتجه إلى سبيلي وأمضي، مرددا العبارة المحفورة في الشاهد، علَّني أتزود منها بمعرفة، تكشف لي المخبوء في قبر المُغتال بعشقه، وتبين لي الهول الذي عَبَرَه لأتَّقيه، وتجوز بي هذا التيه المجبول من نحر الريح للدنيا.

كان نعلي يمتلئ بالرمال تخز قدميَّ بلهيبها، أحس كل حبة منها بذاتها، المدببة، والمدورة، والمنبسطة، لكل وخزتها الخاصة، وكذا الغباريات منها، تحملها الريح غير عابئة بي، أحسها تمر من خلالي، وكأني مقدود من هواء.

وفي غبشها أراه، كشبح يتخفى بضباب خشيتي، شاهد ثان، علامة ضئيلة أن روحا أخرى سلكت إلى عالم آخر. كان له معمار قوس، ينحني جانباه العلويان، فتنزلق عليهما الريح برمالها، أسير

إليه، وعنده، أصير على ركبتي، ألمسه، أجد له برودة غيمة، ونعومة غبار استقر في غائر حروف تنحت عبارته.

روحا أو ترابا

كُنْ

وفي الغبار عاينت ما صارت إليه أجساد من مروا في الريح يوما، وتذهب بهم الريح اليوم، وتكون بهم إلى مقصده.

ولكن، أي مقصد للغبار يكون؟ إنه من رحمٍ إلى وهمٍ، ومن وهمٍ إلى لحدٍ، ومن لحدٍ إلى قفر، ومن قفرٍ إلى بيداء، ومنها، إلى شجرة.

أي مغزى لشجرة وحيدة في قاع متاهة رملية؟ أي عشق تحمل، وأي هوى تثمر؟ أم أنها ليست سوى وهم له دهاء المرمر على إغواء الضوء، كتلك الشجرة المنحوتة تحت كُنْ، تحمل فروعها الصلبة أزهارا حجرية، يتجه ظلها حيث تعصف الرياح.

وتذهب خطواتي، تقتفي أثر الحبيبات السادرة في سفرها، المارقة عبر ملابسي، لتنفذ من نفسي، وتصير إلى القدس المبهم من روحي،

وتسكن جمرة الموت التي يستعر وجودها في محياي، فترتبك خطواتي، وأكون إلى شاهد آخر، متقد البرودة، يكسوه الغبار، يرسم الفراغ حروف عبارته ...

هُنَا صِرْتَ

فَتَدَبَّر

لم يكن ظل الشاهد على الأرض معتما، ولم تكن حروفه المجوفة في ظله نورا، بل مزاج من الغيم ولسع النار، أجتازه حيث يدلني، وفي بصري شجرته المنحوتة في زاويته الدانية إلى الأرض، تشبه شجرة بعيدة، نافرة في الأفق، لا تمسها الريح أو ينالها الغبار، وتحتها كانت، تنفرد بجسدها، كشاهد ينتظر عبارة العابر إلى مهواها، تشير لي أن تعال، فأكون إليها، مرددا عبارتي ...

إنْ تَكُنْ لَهَا

سرابا تكون

دخول في قُبَّة الوَقت

وظلت حيرتي لأصياف عديدة في فهم الطراز المعماري لذلك البناء القديم. مثل معرفة أولى، كنت أجده مِزاجا من تواشيح قرطبية، نقرات دفوف، أناشيد كورال كنَسي، وبعضا من صليل حرب الإسكندر، وقليل من المواويل الشعبية للقاهرة الراحلة.

لم تكن ذاكرتي لتشفع لي جهلي، ولم تكن البوابة الكبيرة، التي أجتازها يوميا، لتمنحني سر التراكيب معرفة سائغة، ولكنها تسمح لي بالمرور في حَلقِها دون اعتراض.

أجتاز الممر الرطب، تكاد الطحالب العشية تنمو في فضائه، وجوانبه الحجرية، وفي الشقوق بين البلاطات، المتباعدة بفعل زمن خاص، لم يمر إلا من هنا، أكاد أشم رائحة وجودها، واسمعها تنمو من حولي، وخفوت سريان العصارة الصاعدة في طراوتها العشبية.

يصعد جانبا الممر، في نضارة كامدة، غلى سقف ثيِّب مقبَّب، مطليّ بلون صار لا يبين، آثار الفرشاة العريضة تمضي في هدوء،

تشكل خطوطا كامنة في العتمة، بارزة غائرة في حَذَر، ربما لم تلمحها عين "المبيِّض" الكهل.

هل كان كهلا بالفعل، أم تُراني خِلتَه أحد الأسلاف، نصب خيمته واستوطن الزمن المخلوق له، هنا، ثم أفل، ولم يبق منه سوى هذا اللون المجهول، وتلك الخطوط الخافية في السقف الشاهق.

كيف كان إليه هذا الكهل؟ هل لم يسمع بمايكل أنجلو وسيستينا، هل لم يفكر بقداسة الصعود إلى المشاهق، والتحليق في فضاء الأسقف الخام، وتطريزها بالتكاوين، والقديسين العراة إلى من غلالة وحيهم، المقشور في بعض نواحيه، والعرَّافة في قدس النفس المدركة بالنفس، وهل لم يعرف يوشع وداود وجالوت وجوديث وهامان ويوئيل وحزقيال ويونس وزكريا وإرميا والحسين وعروة وصلاح الدين والمتنبي ويسوع ومعاوية وحنظلة وأدونيس وأوزوريس وجيرونيكا وأورشليم وبغداد ودمشق ومصراييم والرب على قبة السماء يتهيأ لأيامه الستة.

لعله لم ير شيئا، ولعله مَلَك المعرفة والجهل الواحدين قبل انفصالهما، أو ربما شهد انفصال النور عن الظلمة، وخَلقَ الموت.

يا له من "مبيِّض" فتى، أزلي. أذكره كلما مررت بالعُقَد الجانبية المجوفة والمسدودة بالحائط الواسع، محاريب قائمة للصلاة الحرة، أرحام تسكن إليها زهريات رخامية بيضاء، أجنَّة أبدية، لَّما تولد، من غير زهر أو طين، أرحام باردة، تنفي احتمال وجود لون آخر في المكان، ركام من الثبات الفائر، سكون صاخب، صخب من غير حاجة إلى سمع، ظاهر ، موجود بالقوة والفعل معا، جوهر يحرك العالم، ولا يتحرك.

عند نهاية الممر، وفي تمام اللحظة التي تنتهي عندها حدود القبة، وتبدأ تتكشف السماء، عبر فروع "العِنَبَة" الناشفة، أسمعه؛ الحارس النوبي الكهل، يحييني، لم أفلت منه مرة، دائما أسمعه، وكثيرا لا أراه. تحسبه روحا مهاجرة، أَلِفَت المكان فسكنت إليه، وأعجبُ، هل لا ينام قط، وهل لم ينس قريته الصغيرة الغارقة. لم أكن أفهم أغنياته، أسمعها دندنة تتردد في الحوش الواسع، فيصير لأوراق العنبة الناشفة خشخشة، وتمتلئ كل التجاويف تحوِّم في الزخارف، اسبه باللغز المثير، الطِلَّسْم، ترتيل كهنوتي غامض، وكأنه ليدفع عن قريته الموت. أسأله، يجيبني بأنها أغنيات للعروس ليلة زفافها، وللقمر

الغاضب، وللولد الراحل، وفي كل مرية يدعو لي، ويقول: "الحمد لله". ذات مرة، قلت له: "بعد كل هذا الألم والغربة"، أجابني مبتسما، فبانت منابت ثغره الكهلة لامعة، وكأنها من الفخار المجلَّز، المعمول كؤوسا للتقدمة: "الخير هو اللي فاض على بلادي، أما أنتم فلا يفيض عليكم غير المجاري"، واتسعت ابتسامته، وضحكت.

وفكرت إنه أحد الكهنة الشعبيين، يحوز معرفة الضد الكائن في الضد، ويتلو أوراد الفصحاء، ويقبل القرابين من تمر جاف وخِرَق نسيج وألوان، وأشياء معمولة بالخوص، مشغولة باليد، يُرسِّم المعوزين حكماء، وينَصِّبَهم على بطونهم وقبائلهم، ويظل في الآن ذاته حارسا كهلا، باقيا مثل تميمة معلقة في عنق أسطورة صبية، فلا تستحيل إلى حقيقة فيدركها الموت، لا يغادر بوابته إلا إلى حجرته الصغيرة الخافية، في نهاية الممر، فوق جذر "العِنَبَة"، تحت السلم البادئ من تحت السماء، ولا يصعده قط.

ذكرَى

في الميدان، الذي يفصل بين المساكن ذات البيوت المتشابهة، المرصوصة كالعُلب المخزنة، وبين بيوت الأثرياء، ببراحاتها، وفراغاتها الحرة، وأنوارها التي لا تنطفئ ليل نهار، كان الجسد معلقا، ما زال، في مشنقته البدائية، تعكس أزرار حلته المصقولة تأجج النيران التي أشعلها الثوار، وتحلقوا حولها، يدفئون ليلهم، ويحرسون لحظتهم.

يتحاكون بأحداث جرت، ويتكلمون عما سيكون، من قسوة الحاجة، وجوع الأبناء، ورهق النساء، والشدة التي ستحل على الجميع. ثم يعم سكوت، وصمت له دوي، وسكون يحل في العيون، وعلى الشفاه، ويمور فيض من الأفكار في العقول"*سننام لا نخشى الصبح، وسنصحو لا يرهبنا قدوم ليل* "، "*لن يكون خوف في الطرقات*"، "*سنتكلم، وننطق، ونرى*".

ويجري نهر من المشاعر، بين القلوب المتزاحمة على وجودها،

"*سنتقاسم قُوتَنا وحياتنا*"، وراحت العيون تتلاقى، وكأنما يحكون بعقولهم حلما رأوه جميعا، وبدأت الابتسامات ترتسم على الوجوه، وتتصاعدالضحكات في تآلف، تتراقص في فضاء الميدان المفتوح إلى السماء، وتنهمر حُرَّة من قلوبهم، وكل يحاول أن يتذكر؛ متى أحس بمثل هذه المشاعر؟متى عاشت نفسه مثل هذا الحال؟ وفي تواريخ ذاكرتهم لم يجدوا شيئا.

بوابة وحيدة

وقف الأمير على سور مدينته، يمشي بفخر، يتأمل نقوشا حجرية، وآثار حروب خاضها الآباء والأجداد، وفي مخيلته أجساد جنود منثورة على الرُبى والسهول المحيطة بمدينته الصغيرة، قاتلوا دفاعا عنها، وماتوا دونها، ولم يدعوا العدو أن يهنأ بالمرور عبر أسوارهم.

وفي مواطن موتهم نبتت أشجار مدهامة الخضرة، غنية بالثمار والظلال، يراها أيتامهم وثكلاهم صباح مساء، وحينما يأمن أميرهم نأي الخطر عنهم يدعهم إليها، يخرجون عبر البوابة الوحيدة للمدينة، يبقون يومهم تحت أشجارها، يذكرون فداء الأحباب، ويَطعمون من جناها الحلو، ويمرح الأولاد، وتروي كل ثكلى شجرتها ببعض من دموع باقيات، ويعودون.

يبتهج الأمير بحال رعيته السعداء بالسلام وعدله فيهم، وبفخرهم بسورهم الحصين، وصلادة بوابتهم الفارهة والوحيدة،

ومحبتهم لأميرهم، القائم على أسوارهم يتفقدها، وعلى حياتهم يتعهدها.

وذات ليلة غاب قمرها عن السماء، وغامت النجوم في كنف الفضاء، عاد الأمير من جولته اليومية، يهجع في هدوء المطمئن، فيما تطفو أحلام الآهلين على سطح الليل كقطع من نسيج ذي تلاوين.

وفي الطرقات، المنورة بحبات ضوء خافتة، يسري شبح، يستتر بالسكون الغامر، وطمأنينة السادرين في منامهم.

يختمر بعباءة سابغة، وفي قتامتها تبدو لمعة عينين وجلتين، يقترب من البوابة السامقة في وحدتها، لا يشعر به الحراس القليلون في سباتهم، يرفع المزلاج الحديدي، بيد عاتية القوة، فتنفرج البوابة بقدر ما يمر شعاع ضوء، فما تلبث أن تنفتح بقوة، بقدر ما يمر الجيش المتربص، وألسنة النار اللاهية في رؤوس مشاعل الغزاة.

ينجرفون بسرعة، كسيل يسري في مسراه، يضعون نارهم في كل الفراغات المتاحة بالمدينة، وفي حوائط البيوت المعمولة من أشجار الأحباب، وفي أحلام أمير لم يمهلوه ليستيقظ، وفي أوصال الشبح المنثورة تحت أقدامهم، خلف البوابة الوحيدة.

يقين العُري

صفصافة تغطي الباب الصغير، فيزداد ضيقا، تدخل، تدهمك بصَّات مشرعة تندس ما بين جلدك وروحك، تغزوك رائحة أجساد قديمة، تدفعك بأكفها اللزجة إلى الممر، عاريا، تجتاز بين عتمتين محشوة حجراتها بكل أنواع الظلام، إلى فضاء ضئيل مفتوح على شمس، تغمرك بضوء حليبي، ينهمر على حبات الرمل الشاحبة، لتعكسه زجاجيا حادا إلى أعضائك، تفوت منفردا، ينتابك خجل عميق، تلصق فخذيك ببعضهما البعض وتهرول، تحاول أن تتذكر، فيغيب كل ما قبل البوابة الصغيرة، ويبقى شيء من صفصافة، تحاول أن تنسى عُريَك، تستحضر ما يرغبون من إجابات، تصل إلى العتمة الأخرى، فراغ ضئيل تحوطه جدران جيرية، تتمسح علنا بجسدك، تنتهك رائحتها الفجة أجزاءك السرية، تتحرش بك، تفض ما بقي من اخضرار الصفصافة الخضراء فيما بقي منك، تسيل حواسك، فتتهاوى إلى كرسي مركوم تحت ملامسك، له روح مشنقة وبدن قبر، تقعد، ينثال فحيح الأسئلة الصدئة إلى مسامك، تواصل الجدران

اصطدامها بأعضائك الآخذة في التآكل، تعتصر تداعيات حواسك المرتجفة، تسلبك القدرة على التحدد، تمتص الإجابات الغائمة في ذهنك، ثم تغادرك في صمت، تخرج، وحيدا، هلاميا، تستقبلك الشمس بضوء لاهب، تسوطك بصهدها، فيما تتشرب حبات الرمل الخشنة بقاياك العائدة إلى الصفصافة، خلف الباب البعيد.

رؤيا خروج

البحر صامت، يخيم عليه الهدوء حتى الأفق.

هكذا يكون الأمر في موسم الصهد المشمس.

وفي قلب المحيط الرملي، المترامي الأطراف، بين المدن الصاخبة بهمومها، ووشيش البحر اللاهي، يقبع السور المغبَّر بأزمان الوحشة والوَحدة،يرتفع فوق المار حيث يلامس السماء، ويمتد حتى يكون كذؤابة نصل يطعن في الأفق، ويرسم تخوم سجن، ملقى في فضاء رملي متماهي الحدود.

وفي جوفه لم يكن صوت، سوى رقرقة ماء يتساقط بطيئا، من صنبور وحيد متعلق بالجدار الصلد، تهبط القطرات في ثقل، تغيب كتلتها في البركة الصغيرة المشكولة من قطرات سابقة، فتنشط موجات ماء تبدأ دائرية، ثم لا تلبث أن تنكسر هرمونيتها بالاصطدام بجوانب الحوض الإسمنتي الممتلئ إلى حافته، فتفر إلى شقوقه حيث تجبرها الخدوش على الاستسلام فتتماهى في خضوع إلى سائر الماء.

تنشق الأرض، ذات الصفرة الترابية المكتومة، حول الحوض،عن خضرة شاحبة، تميل إلى السواد، لطحالب مجهدة، ترعى خيوط الماء الهاربة.

ومن الزنازين، التي تنغرس قضبان نوافذها في صلادة الجدران ، يخرج كل رجل في دوره، يحمل دلوه المعدني الصدئ، يفتح الصنبور لآخره، يضع دلوه في الحوض، يتأرجح لبرهة، طافيا على سطح بركة الماء القاتمة، وما إن يسكن ممتلئا، وتغيب جنباته المتعرجة في قتامة الماء، حتى يحمله صاحبه، ويمضي، ويجيء آخر، وآخر، وآخرون.

بعدما تنتهي نوبة النظافة،ويأفل نهار آخر، يعودون ليملأوا لحياتهم، نفس الدلاء، ونفس الماء، الذي لا يعلم أحد من أين يجيء، ويعجبون لسيولته برغم كل ما يحمل من أشياء لا يعلمون كنهها.

ويذهب كل إلى زنزانته،يضعون الدلاء في الزوايا، كذخائر ثمينة، ويبدأون نشاطهم المسائي، الذي يحفظون به بعض ما لديهم من وجود إنساني، فيستخرجون الأوراق المخبأة في فراغات الأبواب السفلية، والأقلام المدسوسة في أرغفة الخبز، المركونة

بإهمال، وكتبا يحفظونها في صدورهم، ويشرعون في مجاهدة النسيان والغربة، حتى لا ينحت الموت المحيط صخور صبرهم، وفي ترطيب نفوسهم، وعقولهم، وأرواحهم، حتى لا تؤدي شدة الوحشة إلى تيبس وجودهم، ويتهيأون ليوم الخروج، سواء إلى أرض،أو إلى سماء.

وتبقى القطرات الثقيلة مستمرة، تملأ الحوض بإصرار، يسمعونها في عمق الليل، تُذكرهم بالزمن الماضي فيهم، وبالكائنات المخضوضرة النابتة في صرامة الأرض، تصارع سواد العفن، وجفاف الريح.

وذات ليل، رآها الجميع، ناشرة أشرعة لها لون غريب عن ألوان حياتهم، قاموا، وكل يرمق عين صاحبه، فعرفوا، دون أن ينطق أحدهم، كانت رؤياهم جميعا.

وذات صباح، كان يمكن لكل من يذهب إلى الحوض أن يراها، مثل زهرة ليلك، تطفو في ماء الحوض، ومشرعة للشمس الجهورة،ولعيونهم.

رأى جميعهم شراعها الكتاني مرفرفا، متألقا، في رمادية الأفق

الإسمنتي، بادية كالحلم الهائل في عقل طفل صغير، لم يتحدث أحد، لم يكن أحد يقدر على الكلام، كان لعيونهم الصوت الأعلى، وقالت كل عين كل شيء، لكل واحد.

ملأوا دلاءهم في حرص، وملأت التساؤلات رؤوسهم :

" كيف يمكن لها أن تحملنا !"، "كيف ستخرج بنا".

ثم طرحوا عن أذهانهم السؤالات، وغامروا بقبول وجودها.

وغادر كل في دوره، إلى زنزانته، لمُّوا أوراقهم المخطوطة، شروحهم، أذكارهم، كتبهم، وخطابات لم تُرسل بعد، وما كانت، وبضعة أشياء، ورؤيا واحدة، تطوف بالأنفس جميعها، الكامنة في معاقلها، ترقب الفجر، ولا تنام.

وفي غداة اليوم التالي، كانت قد غادرت الحوض.

وفي قلب السور البعيد،في الصحراء البعيدة،لم يبق سوى زنازين خاوية، وحراس يمسحون غبار الدهشة عن عيونهم الخشنة، وبضعة أقلام متناثرة، وورقات بيضاء تحملها هبات ريح هادئة،وصوت قطرات ماء،تهبط كثيفة،كزمان يمر،إلى طحالب الصحراء.

دموع الجنرال

برز الجنرال إلى المنصة ليبدأ مؤتمره الصحفي الشهري، من حوله تكدست كل أضواء المدينة، فقهرت كل ظل له، وعلى صدره تدلت كل نياشين الحروب التي خاضتها البلاد، حتى قبل أن يولد، يعكس ذهبها المصقول نصف الأضواء، أما نصفها الآخر فيبتلعه حلقه ، مثل ثقب أسود في الفضاء المنصوب له، والذي لم يتوقف خلاله عن الكلام، حتى حين يُسأل.

وعبر هذا الفيض الثقيل للضوء، وتكتكات آلات التصوير، وومضات الفلاشات، وصوت الجنرال، شق شاب طريقه داخلا، في هدوء واستسلام، مصوبا نظره إلى الجنرال، لا يلتفت، حتى توقف عند الحد الفاصل بين زحام الحراس والصحافيين المرصوصين كالدمى، وبين الخلاء الخاص بالجنرال، الذي استشعر بحنكته الخفية نظرة الشاب إليه، فتوقف عن الكلام، وإن ظل حلقه يبتلع الضوء القريب منه، وسكت كل شيء.

أنشق السكون عن صوت الشاب، ثقيلا مرتجفا، لكن واضحا، انسابت كلماته عن ما يعانيه أهل المدينة من فقر وجوع ومرض وجهل، وعن الشباب العاطلين عن الحياة، والموت الذي ينافس الزمن في تواليه، وعن نار الظُّلم السارية في طرقات المدينة، تحصد أرزاق العباد، والخوف اللابد في نفوس الناس، والكلام المقبور في صدورهم.

استمع إليه الجنرال في سكون لم يبعده للحظة عن موضعه في مركز الضوء، بينما كان الحضور يراوحون بأعينهم المشدوهة بينه وبين المنصة، ويبتعدون عنه، فأصبح يشغل فضاءً وحده، في مواجهة الخلاء المقابل.

رفع الجنرال كفه وداري عينيه، ثم هبط بهما في بطء، لتلتقط آلات التصوير لمعة دموع تريد أن تنحدر عنه، وهز رأسه في أسى، وبهدوء، انحدرت كفه إلى جنبه، وفيما كان يكمل بوجه الصقيل تعبيرات أساه، أطلق رصاصته الصامتة إلى قلب الشاب، فترنح جسده، وقبلما يسقط تلقاه حارسان، واختفيا به.

وفي الخارج، كان الناس ينتظرون فتاهم، يرجفون في الليل

البارد، فلا يخرج، وينتهي المؤتمر، ويرحل الصحافيون، والحراس، والجنرال، ولا يخرج، فيزيد ارتجافهم، وجوعهم، ويجبرهم البرد والملل على العودة إلى بيوتهم.

وفي الصباح، كانت كل الصحف، والناس في سبلهم إلى معايشهم، يتحدثون عن محبة الجنرال وحزنه لحال أهل المدينة، وعن المسكين الذي انفطر قلبه تأثرا برقة الجنرال.

كلب

لما أحس ببعض التوتر، نتيجة قلق المجتمع الدولي من تزايد جرائمه في حق أولئك الذين يسكنون البلد التي يحكمها، خرج إلى مؤتمره الصحفي العالمي منفعلا، ردد قائمة مختصرة، استغرقت ساعتين، للفوائد والمصالح التي يجنيها أولئك المنتقدون لسياساته، الجالسون على كراسيهم الوثيرة، في بيوتهم البيضاء والحمراء والزرقاء، وكل الألوان الأخرى، مؤكدا أن رحيله لا يعني إلا الخراب الشامل، والدمار الماحق، والانهيار الاقتصادي، والتفسخ الاجتماعي، والبيولوجي، والبيئي، وغير ذلك مما لا يعلمه غير الخاصة والشيطان .

وحين فرغ، كان عَرَقَه المخبوء خلف حُلَّته المحبوكة، قد سال إلى فخذيه، وأرهقه ثقل السترة الواقية من الرصاص، فعاد إلى مقره، وقبلما يصل، هاتف رئيس ديوانه، ليكون حمَّامُه جاهزا حين عودته.

عندما وصل، استقبله كلبه، يتقافز عليه، ويجري خلفه، ويدور

حوله، يسبقه إلى مستحمه، ويقفز في الحوض الممتلئ بالماء المعطر بالصابون الفاخر، ثم يقفز خارجا، فيملأ الأرض ببلله، ويدخل هو مرحا خلف كلبه، ويدوس في البلل الزلق، يسقط، ويصطدم رأسه بحافة الحوض الكريستالي ذي الصنابير الذهبية، وينتشر لون الدم ، مفسدا تآلفات الألوان في المكان، ويفزعُ الكلبُ، يهرول هاربا، وهَوَى هو إلى الأرض، يرتجف رجفتَه الأخيرة.

وبعد يومين، كانت جنازة رسمية مهيبة، تحمله إلى مثواه، يتقدمها الرجل الجديد.

وبعدما وارى سلفه التراب المرصع بالرخام، وقف يؤبنه، متعهدا بمواصلة المسيرة، من أجل الحفاظ على الاستقرار، وتحقيق حلم الرخاء، و....، و .... .

وعند قدميه، كان كلبه قد أقعى في سكون، يهزهز ذيله مع رنات صوت صاحبه، وينتظر.

الطاغية في وحدته

حطَّ الحزن على جنبات المكان، ولم تعد الأرض تطرح غير الهمِّ، وفي الأنحاء كان صمت، ينوشه دوي صفير الموت، ولم يعد أحد هناك.

الكل غادرَ هاربا، إلى بلاد غريبة بعيدة، أو فارق راحلا إلى السماء القريبة. ووحيدا بقي الطاغية، طافيا فوق عرشه، من دون شعب، فلم يعد ثم معنى لوجوده. وحسب طقوسه اليومية، كان عليه أن يقتل أحدا ما، وليس ثم أحد، فأخرج مسدسه الأثير، وأطلق رصاصته الأخيرة، على رأسه الأجوف.

عذابات القبح

زنزانة قبيحة الجدران، لزجة الهواء، تكسو أرضها القذارة، زَخِمَ فضاؤها برائحة النزلاء الثقيلة، حتى تكاد أن تتجسد حولهم، مثل شرنقات من وسخٍ، لا يبين منها غير وجوه ملوثة ساكنة مستكنَّة، تشي عيونها المعتمة بالرضا.

تهتك تكَّاتُ مفتاح ضخم الصمت الشاسع المُدَارى وراء الباب الحديدي الصَدئ، تثير الذعر اللابد في الصدور المكدَّسة في ذلك المستنقع الجاف. ينفجر صوت جهوري مناديا: 30.

ينتفض أحد المركومين في الزنزانة واقفا، تُثقله رائحته الغليظة، يخوض في كثافة غير مرئية، ويتجه إلى الباب، تستقبله كتلتان جسديتان، يمسكان بذراعيه، ويذهبا به. يَصِرُّ الباب منغلقا، وصوت تكَّات وحشية يسقط محتكا بحواف الباب الصدئة، محاولا اختراق الزخم المتراكم ليصل إلى مسامع المركومين خلفه.

يأخذان به إلى زنزانة معتمة، يقيدانه إلى ما يشبه مقعدا، تقترب يد

شديدة من وجهه، يصرخ صرخة واحدة، ويخرجون.

يضيء مصباح خافت، يتوجه ضوؤه نحو لوحة "مدرسة أثينا"، المعلقة على الجدار المواجه له، يشهق ذعرا، يحاول أن يغلق عينيه، تمنعه الآلة المثبتة على وجهه، يعصره الألم، يحاول أن يشيح بوجه، لا يقدر، قيود تثبت رأسه، ينتفض كالمذبوح في مقعده، آخذا في الصراخ والنواح، حتى أغشي عليه، ليفيق وقد عاد إلى مستنقعه، وقلبه ما زال ينتفض، ولكن نفسه كطحلب عاد إلى آسن مائه، فلم يروعه الصوت الجهير الخشن وهو ينادي: 6.

قام كسابقه، ومضوا به إلى ذات العتمة، وذات القيد، وغمامة على عينيه، وتركوه في غيابة خوفه مما سيكون، وما لبث أن تردد صوت رخيم، يقرأ في هدوء محاورة "فايدروس"، بإبطاء من يتلذذ بفعله في تعذيب مستمعه، الذي صرخ صرخة مدوية، كثيفة وقصيرة، فتتت حنجرته، وفطرت قلبه رعبا، ومات.

سأل عنه زملاء، لا حبا أو قلقا، بل رغبة في معرفة ما قد يكون من مصير، فعوقبوا بتكديس زوايا الزنزانة بالكتب، فيما تنهمر على مسامعهم تاسعة بيتهوفن، بلا رحمة، لأسبوع من التأوه، والتراكم في

وسط الزنزانة، خشية أن تمسهم الأوراق المتربصة بهم، يتألمون، ويجأرون بالنواح، ليطمسوا صوت الكورال الشادي، ويتمنون لو نودي عليهم فلا يعودون، حتى رُفعت الكتب، فعادوا ينعمون بالاحتكاك بالجدران، وخشخشة القيح في آذانهم، وصوت تكَّات المفتاح الضارية، وصرير الباب الصدئ، والصوت الشَّرِس ينادي: .13

ضوء ما

سار عبر الشارع المزدحم ، تتراص على جانبيه المتاجر، ونوافذ العرض المتألقة، تزخر بالمعروضات. يشعر بالروائح الدافئة تنسرب عبر المداخل، تجمدها البرودة على عتبات الأبواب، وعلى الواجهات تتراقص أضواء ذات إيقاعات ملونة، يمر بها، لا يلتفت إليها، يشد كوفيته حول رقبته، ويضع يده في جيبه، يحسب ما بقي بأطراف أصابعه، ما يكفي لشراء تذكرة رجوع رخيصة.

يتجه إلى المحطة، لا يجلس على المقعد الرطب بنداوة الليل الشتوي، يلمح كومة من الرقع، تتدثر بها امرأة، تجلس على الأرض، وتسند ظهرها إلى المقعد البارد، يرى يدها المتغضنة ترتجف، تمتد إلى كيس مظلم لا يحوي شيئا، وأصابعها الهشة ترتفع خالية إلى فمها، وفما يمضغ فراغه. تسقط حبات مطر خفيفة، تفرد لها العجوز يدها، وتلعق بلل كفها.

يهبط إلى جوارها، يرفع يدها بكفه، فتلوح من بين الدثار المهترئ عينان ضئيلتان تنظران إليه، من تحت جفون يابسة، يضع ما في جيبه في كفها، ويقوم، وتأتي الحافلة، وتمضي، ويسير عائدا، ينظر إلى الطريق، يراه مفتوحا باتساع الليل، يحتشد بحبات مطر، تعكس ضوءا لا يدري مصدره.

جدار من زجاج

جلس إلى مائدته الملاصقة للجدار الزجاجي، ما إن شرع في تناول طعامه، حتى لمح خيالا، التفت جهة الزجاج، رأى صبيا يقف على الجهة المقابلة من الجدار الزجاجي، في الشارع، ينظر إلى الطعام بعينين ثابتتين، لا تدلان على شيء، فقط نظرة جامدة، كأنما يجعل من نفسه لوحة حية، طرق الرجل على الزجاج، وأشار للصبي، لم يتحرك أو تجفل عيناه، وظل في تحديقه الغامض إلى الطعام، طرق مرة أخرى، وأشار للصبي بالدخول، فلم يرمش له جفن، ولم يتحرك، قام إليه يدعوه، وعندما خرج إلى الشارع، لم يجد الصبي، مشى بضع خطوات يبحث عنه، ويفتش في وجوه الناس، لا أثر له، نظر إلى الزجاج من الخارج، لاحظ أنه عاكسٌ كالمرايا، لا يُظهر ما وراءه، عاد إلى مائدته متحيرا، وما إن جلس إلى مقعده، حتى لمح الطيف يعود إلى التجسد، الصبي مرة أخرى، في نفس موضعه ونظرته وثباته، فالتفت إلى النادل، وهو يشير إلى الزجاج "هل ترى ...." وقبلما يكمل "لا سيدي، قليلون هم من رأوه، وتساءلوا

مثلك، ولكنهم ذكروا أنه كالصبية الهائمين في الطرقات"، فطلب منه أن يضع له طعامه في علبة، أخذها وخرج إلى الموضع الذي رأى الصبي واقفا فيه، وترك الطعام، ومضى.

في اليوم التالي، جلس في موضع الأمس، لكن الصبي لم يظهر، فطلب علبة طعام إضافية، وبحث في الشوارع عن صبي مشرد، أعطاه إياها، وكرر الأمر في الأيام التالية، يوزع علب الطعام على الصبية من ساكني الأرصفة، إلى أن رآه، ذات مساء، على الرصيف المقابل، ومن بين المسافة والزحام رأى وجهه الذي نُقشت ملامحه في ذاكرته، ولدهشته كانت عيناه ترفان مبتهجتين، وترسل له بابتسامة خافتة، فجاهد لأجل أن يعبر الطريق إليه، ولما فعل، لم يجده، وفي مكانه كانت علبة طعام فارغة.

سَكرَات

وقفت عند ناصيتها المعتادة، تبيع ورداتها، في جو قارس البرودة، عاصف الريح، وليس عليها غير شال تغطي به رأسها وكتفيها، وجلابيتها الوحيدة، عند الناصية الريح هادرة، تجذب شالها من جهة، وتدفع به من جهة أخرى، والبرودة صارمة، لا تحتملها الوردات الهزيلة، فتنهزم حواف أوراقها مترهلة، ولا يحتملها جسدها النحيل، تنتفض مرتجفة، تسقط الوردات، تطوحها الريح إلى منتصف الطريق، تدهسها السيارات المغلقة على دفئها، تختلط حبات دموعها الدافئة بقطرات المطرالبارد، تلملم أطراف جلابيتها بيد، وبالأخرى تضم أطراف شالها، وتجرجر جوعها، تحت سيل شرع في الهطول، في مواجهة ريح بكماء، وتعود إلى مسكنها، لتتهيأ لسكرات يوم آخر.

هجرة

تسلل إلى الشاطئ الصخري القاصي، حيث أخبروه، لا يكاد يرى غير خوفه مما هو مقبل عليه، يختلط ببعض توهجات أمل بعيد، تناثر إثر قفزه واصطدامه بأرضية القارب المتهالك.

انحشر بين كتل لحمية مرتجفة، وحقائب فقيرة، ورائحة ملح مرعبة، تفوح من الظلام الذي ظلوا يتأرجحون في قلبه، لليال بطول العمر، ونهارات كالأبد، من بعدها ليال ونهارات أُخر.

يحاول طمأنة نفسه بخيالات عن شاطئ بعيد يفرد روحه على رماله مطمئنا، تغمره الشمس، التي تحرقهم الآن، فيما يبحرون في متاهة لم يعودوا يدركون زمانهم فيها، يتناوب عليه الحرق النهاري وصقيع الليل، يشاركهما جوع لا مسدَّ له، وهول يهدر في مُهجِهم، وصممٌ يصبُّه صوت موتور ينبح في آذانهم بلا توقف، وبحر عابث يشاكس الغيم، فيرد ذاك ببرقه اللافح، ليهتاج البحر، قاذفا موجه لنهش ما يطاله من غيم، ويسقط غير آبه بتلك النقطة العائمة تحمل

أرواحا، فتتفتت في كبد غضبه، ويغيب بعضها في لُحمته، وتتوزع أشلاؤها في أنحائه، حتى يقذف بها ذات صباح مشمس، على الشاطئ البعيد، ليستقبلها أناسه بنظرات تعجُّب مشفقة، وأكياس محكمة، يضعونه في أحدها، ويفردونه على رمال الشاطئ، حتى يأتي من يعيده إلى أرضه البعيدة.

فهرس

«لا أذكر أن أحداً علّمنا، أو أن أحداً دلّنا على اسم اللعبة، الاسم السحري الغامض، لم تكن نفكر، كأنها خبرة فطرية وُلِدنا بها، أو لقّننا إياها المَلَكُ الذي يهبط بأرواحنا، ونحن بعد في أرحام أمهاتنا، ببساطة، صارت اللعبة في حياتنا كحياتنا نفسها»

هكذا يأخذ بيدنا ناصر الحلواني في متعة خالصة نحو الخفّة بأوراقه، في قصص تهفو إلى وميض جذاب، لكن بحرص شديد ودقة بالغة، اللغة هنا طيور أسطورية، بتعاويذ مجنّحة، تحمل خيالات تطارد أرواحاً حارسة، تتلبّس أجساماً تدور في حجرة أو شاطئ أو غابة، تصارع وجوداً حتى تصل إلى نقطة ذائبة في جوفه، والسرد هنا محفوف بملامح محفورة في بنيان طامح، مع أنه كحبّات المطر على الكفّ، ملموسة لكنها غير مرئية.

الشاعر محمد عيد إبراهيم

